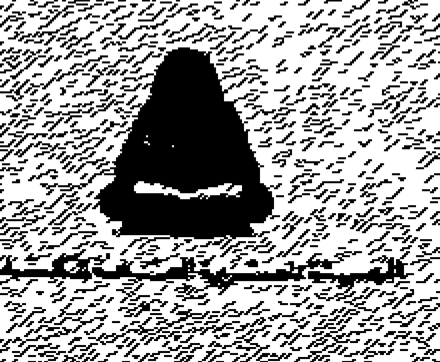
تاريخ المصريين ١٢

هدى شعراوى وعصر التنوير

د. نبيل راغب



تاريخ المصريين

١٢

رئيس التحرير
د. عبد العظيم رمضان

الاخراج الفنى : محمد قطب

الغلاف : اسامة سعيد

هدى شعراوى
وعصر التنوير

د. نبيل راغب



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٨٨

إهـــــداء

الى عقل بنت بلدى وارادتها
أهدى هذه الاشراقة

نبيــل



على الرغم من مرور أربعين عاما على رحيل هدى شعراوى ، رائدة الحركة النسائية فى مصر ، فان كتابا لم يصدر عنها بعد — فى حدود علمى — يبين دورها التاريخى فى نقل المرأة المصرية من عصر الحريم الى عصر التنوير ، وها نحن نوشك أن نعود بالمرأة مرة أخرى الى عصر الحريم ، تحت فكر الجماعات التى تتاجر بالاسلام وصولا الى السيطرة السياسية على مقدرات بلادنا ٠

من هنا يأتى هذا الكتاب بمثابة تذكرة ، وشحذ لذاكرة جماهيرنا التى بات يهددها ظلام الرجعية وفكر العصور الوسطى ، فى عصر تقفز فيه الشعوب الأخرى الى عالم الفضاء ، وتطأ بأقدام روادها أرض القمر ! ٠ ومن هنا أيضا فقد أخذ هذا الكتاب من انجازات هدى شعراوى منطلقا وضوءا فاحصا ينير به الكهوف المظلمة والطرق المسدودة التى أوشكت المرأة المعاصرة على الدخول فيها تحت وهم الواهمين ٠

ومن حسن حظ المرأة الحديثة أنها لن تبدأ من فراغ ، فأمامها تراث هدى شعراوى ، الذى أثبتت التربة المصرية قدرتها على احتضانه واستنباته وانمائه ، كما آن الظروف الراهنة ، مهما بلغ من سوئها تحت الهجمة اليمينية الشرسة ، الا آن التغير الذى طرأ على البناء التحتى ، سواء على مستوى أدوات الانتاج أو على مستوى القوى المنتجة أو علاقات الانتاج ، يفرض ـ بالضرورة ـ ظروفا أفضل من الظروف التى كافحت فيها هدى شعراوى ، والتى تراكمت فيها سحب التخلف المتبقية من العصر العثمانى ، الذى أطبق على أنفاس مصر ما يقرب من أربعة قرون • يضاف الى ذلك أن ما تملكه المرأة المصرية اليوم من وسائل الدعوة والاعلام ، وما تلعبه من دور فى العملية الانتاجية ، وما تشغله من مراكز رفيعة فى الدولة ، وما حصلت عليه من حقوق بقانون الأسرة الجديد ـ كل ذلك يهيىء لها النجاح فى مقاومة المحاولات التى تستهدف الرجوع بها الى عصر الحريم •

ولقد كتب هـذا الكتـاب الدكتور نبيـل راغب ، الذى قدم للمكتبة العربية من الانتـاج العلمى ما يتيح له مركزا مرموقا فى حياتنا الثقافية بفضل تنوعه وغزارته ، وما يجعلنى أشعر بالسعادة وأنا أقدمه لقـارىء هذه السلسلة التاريخية لأول مرة فى هـذا المؤلف الجديد •

رئيس التحرير

د • عبد العظيم رمضان

مقدمة

بدأ اهتمامى بهدى شعراوى منذ مطالع الستينيات عندما كنت أقوم بالتحضير لرسالة الماجستير فى الأدب الانجليزى والتى كان عنوانها « نظرية الحب فى مسرح برناردشو » ، اذ كان على أن أقوم بمسح وتحليل شاملين لقضايا المرأة الأوروبية والأمريكية بحكم أن برنارد شو كان من أكبر أنصار تحرير المرأة منذ النصف الثانى من القرن الماضى ، وتجسد هذا الموقف الفكرى فى معظم الشخصيات النسائية التى لفتت الأنظار الى مسرحياته بقوة ارادتها، وجرأتها على القيام بأعمال الرجال ، وقدرتها على اتخاذ المواقف الصعبة والقرارات الحاسمة ، رافضة الأنوثة الخانعة الذليلة ، والنعومة الرومانسية الحالمة التى تميزت بها النساء فى مسرحيات الأجيال التى سبقته ٠

هنا تذكرت هدى شعراوى التى كنا قد درسنا عنها بعض الشذرات المتناثرة فى تاريخ مصر المعاصر من خلال مواد الدراسة الثانوية ، وقررت أن أكتب عنها كتابا لأوضح قدرة المرأة المصرية على مواكبة أحدث التيارات الفكرية الانسانية برغم عصر الحريم الذى كانت تنوء به وترزح تحت كابوسه المظلم الطويل ٠

ولم أجد مادة علمية أعتمد عليها فى كتابى سوى الصحف والمجلات التى عاصرت كفاح هدى شعراوى ورصدت مراحله وتفاصيله مثل الأهرام ، والسياسة الأسبوعية ، وروز اليوسف ، والجنس اللطيف ، والسفور ، والفتاة ، والسيدات ، وفتاة الشرق ، وفتاة مصر ، وكوكب الشرق ، والمرأة الجديدة ، والمرأة المصرية ، والمصرية التى أصدرتها هدى شعراوى ٠

وكتب قليلة مثل كتاب « المرأة كفاحها وعملها » لأحمد طه أحمد ١٩٦٤ ، و « المرأة المصرية والبرلمان » لأمانى فريد ١٩٤٧ ، و «حقوق المرأة» لحسنى نصار ١٩٥٨ ، و « المرأة المصرية » لدرية شفيق ١٩٥٥ ، « وتطور النهضة النسائية من عهد محمد على الى الفاروق » لدرية شفيق والدكتور ابراهيم عبده ١٩٤٥ ، و «ذكريات» لفاطمة اليوسف ١٩٥٩ ، و « المرأة والتعليم الجامعى » للسعيد مصطفى السعيد ١٩٥١ ٠

وبمجرد الاطلاع عـلى بعض هـذه المراجع ذهلت لانجازات هذه الرائدة الجليلة فى زمن لا يسمح بمثلها أو ببعضها على الاطلاق ، وتفجرت حماسا لكتابة كتاب عنها لعله يكون مقدمة لكتب آخرى عن جوانب عبقريتها المتعددة ، وهو نقص خطير بل وصمة فى جبين المكتبة العربية الحالية من أى كتاب متخصص عنها • وقبل أن أشرع فى الكتابة توجهت الى رئيس مجلس ادارة الكاتب العربى فى ذلك الوقت (الهيئة المصرية العامة للكتاب الآن) لأطرح بين يديه مشروعى ، وكان أستاذا جليلا وصديقا عزيزا ، فاذ به ينصحنى بعدم الاستمرار فى المشروع لأن النظام الثورى الحاكم لا يشجع نشر الكتب التى تتناول أعلام ما قبـل الثـورة ، وأن هنـاك فى المطابع كتابا بعنـوان « المرأة فى ميـادين الكفـاح » لفائزة عبد المجيـد كان جـواز مروره الى المطبعة آنه تناول شهيرات النساء من أمثال زنوبيـا وشـجرة الدر وممتاز زمانى ونـور جيهـان وجان دارك وجـوزفين ومدام رولان وفلورنس نايتنجيل وهاربيت بيتشر ستو وهيلين كيلر ، وتجاهل الشهيرات من النساء فى العهد الملكى من أمثال هدى شعراوى •

لم يكن أمامى سـوى أن أتراجـع عن مشروعى

خاصة وأننى لم أكن أملك القدرة على نشر كتابى على نفقتى الخاصة • وجرفتنى أمواج الحيـاة بعيـدا لكن الفكرة كانت تطل برأسها من حين لآخـر عـلى مخيلتى ومعها غصة فى حلقى من سياسـة تنـكر أمجاد رواد أصلاء بحجة انتمائهم الى عهد وصفوه بأنه بائد •

وهكذا ظلت هدى شعراوى مضطهدة بعد مماتهـا أربعين عاما لم يكتب فيها كتاب واحد متخصص عنها • وكنت أقول لنفسى ان هـذه الرائدة لو عاشت فى بلد آخر لأقيمت لها التماثيل فى الميادين ، وكتبت عنهـا عشرات الكتب ، وأصبحت تراثا حيا فى كل مجـالات التعليم والتثقيف ، وكانت فخرا لمصر تباهى به الأمم الأخرى •

وظل التســاؤل يراودنى حتى التقيت بالمـؤرخ الأستاذ الدكتور عبد العظيم رمضان المشرف على سلسلة « تاريخ المصريين » التى تصدرها الهيئة المصرية العامة للكتاب ضمن عدة سلاسل ثقافية جديدة تغطى معظم جوانب حياتنـا الفـكرية والثقافيـة وتسـد فراغات وثغرات خطيرة فى المكتبة العربيـة ، وهى بلا شـك انجاز ثقافى وحضـارى كبير لابد أن يذكر للأسـتاذ

الدكتور سمير سرحان رئيس مجلس ادارة الهيئة الذى انتهج هذه الاستراتيجية الشاملة منذ توليه المنصب .

عرض على الدكتور عبد العظيم رمضان الاشتراك فى السلسلة بتأليف كتاب أو أكثر ، يلقى الضوء على جوانب جديدة من تاريخ المصريين . ولم يكن الأمر فى حاجة الى تفكير طويل بل سرعان ما عرضت عليه فكرة كتابى عن هدى شعراوى ، فوجدت عنده نفس الحماس المتفجر والترحيب الحار بفكرة الكتاب وسرعان ما عدت الى المادة العلمية القديمة التى كنت قد جمعتها منذ أكثر من عشرين عاماً ، فوجدت أن رصد انجازات هدى شعراوى وتحليلها تاريخيا يعتبر الآن من قبيل تحصيل حاصل اذ سبقنى اليه كتاب وكاتبات ، وان كانوا قد تناولوها ضمن تاريخ عام وليس بصفة شخصية مثل كتاب « المرأة المصرية والتغيير الاجتماعى ١٩١٩ ـ ١٩٤٥ » للدكتورة لطيفة محمد سالم ١٩٨٤ ، و « الحركة النسائية فى مصر ما بين الثورتين ١٩١٩ و ١٩٥٢ » للدكتورة آمال كامل بيومى السبكى ١٩٨٦ ، و « المرأة وقضية فلسطين » ١٩٧٤ ، و « الحركة النسائية الحديثة » ١٩٧٣ للدكتورة اجلال خليفة .

وقد حمسنى لتغيير المنظور أننى لست مؤرخا وان كنت أعتبر نفسى من هواة قراءة التاريخ ودراسته ، ولذلك قررت أن ينهض كتابى على تحليل المنهج الفكرى الذى أدى الى كل انجازات هدى شعراوى المادية والحضارية الملموسة فى شتى المجالات ، خاصة واننا أصبحنا الآن فى مسيس الحاجة الى منهجها المستنير كى يضىء لنا بعض معالم الطريق التى اختفت تحت ظلال دخيلة علينا ومتكاثفة بصورة مخيفة . ولذلك جاء الكتاب بمثابة خريطة فكرية لهدى شعراوى تحدد لنا المواقع التى يمكن أن ننطلق منها الى آفاق أرحب وأشمل .

دار الفصل الأول عن روح العصر الذى نشأت فيه هدى شعراوى لتلمس الارهاصات التى سبقت بزوغ نجمها ، والعوامل العامة التى مهدت لريادتها فى مجال تحرير المرأة بصفة خاصة وتحرير المجتمع بصفة عامة ، قبل أن نتتبع العوامل الذاتية التى جعلت منها « هدى شعراوى » .

ثم كان الفصل الثانى عن جذور الريادة عند هدى شعراوى ، والذى يوضح كيف كانت مسلحة

بالوعى الحاد منذ نعومة أظافرها ، وهـو الذى منحهـا القدرة على الاستيعاب والتحليل ورصـد الظواهر التى تمر بها ، والتساؤل الملح عن الأسباب الكامنـة خلفها والتى أدت اليها ، وكيف كانت تعمل عقلها دائما فى تفسير الظواهر في أبسط صورها ، وتتجنب التعقيدات التى نتجت عن الرواسب والتراكمـات التى تناقلتهـا الأجيال دون التفكير العلمى الجـاد فى مدى جـدواها وفائدتها فى حياتها ٠

ثم ركز الفصل الثالث على النظرية والتطبيق عند هدى شعراوى لأنها من المفكرين الذين يؤمنون بأنهما وجهـان لعملة واحـدة ، وأن أى انفصـال بينهما قد يؤدى الى تشويه النظرية أو انحراف التطبيق أو كليهما معـا ٠ فالنظـرية لا تنطلق من فراغ وانما تنبع من الواقع الذى تحاول تقنينه حتى تتبلور ملامحه واتجاهاته فيسهل التعامل معه بل والتحكم فى مسيرته كى يتجنب الدخول فى دوائر مفرغة أو طرق مسـدودة ، تعـوق تطوره وتقدمه ٠ وفى الوقت نفسـه لا تعتبر النظرية نصا مقدسا بحيث يفرض قسرا على الواقع دون مراعاة للمعوقات التى قد تنشأ نتيجة للتطبيق المتعسف ، مما قد يجعل النتائج عكس المرجو تماما ٠ ذلك أن هنـاك

علاقة جدلية متبادلة بين النظرية والتطبيق بحيث لا ينقاد أحدهما للآخر انقيادا أعمى ، بل يطور كل منهما نفسه طبقا لعلاقات التأثير والتأثر المتبادلة بينهما بصفة مستمرة ٠

وفى الخاتمة حاولنا استخلاص الدروس المستفادة من تجربة هدى شعراوى الرائدة ، وتراثها الفكرى حتى نعيد ترسيخ جذوره فى التربة المصرية التى أثبتت قدرتها على استيعابه ورعايته وتنميته حتى يؤتى ثماره الناضجة ٠ ذلك أن هدى شعراوى ليست مجرد مرحلة تاريخية عابرة ، بل نقطة تحول مصيرية فى تاريخ الحركة النسائية فى مصر الحديثة ٠

واذا كان هذا الكتاب هو أول كتاب يصدر عن هدى شعراوى وفكرها بصفة شخصية ، فنرجو ألا يكون الأخير ، لأن فى تراثها واستراتيجيتها النظرية والتطبيقية ما يحتاج الى دراسات أخرى تبلور الجوانب الخصبة والمتعددة فى حياة هذه الرائدة الجليلة ٠

٣ يونيو ١٩٨٧ نبيل راغب

روح العصر

أثبت تاريخ الحضارات الانسانية استحالة ميلاد الرواد الذين غيروا مساراتها من فراغ ، بل لابد من وجود الارهاصات التى تسبق بزوغ نجمهم فى الأفق ، أو الموجات التى يتصاعد مدها وتتدافع حتى تبلغ أعلى قممها التى تتمثل فى انجازات هذا الرائد أو ذاك . لكن لا يعنى هذا أن هذا الرائد مجرد صنيعة للعوامل التى سبقت ميلاده ومهدت له ، ذلك أنه يملك من الطاقات والقدرات والمواهب الشخصية ما يتفاعل مع روح العصر المواتى ، بحيث يشارك بأكبر قدر ممكن من قوة الدفع التى تصل به الى التربع على احدى قمم العصر . وليست هناك مقاييس موحدة ومعايير ثابتة يمكن بها تفسير الأسباب التى أدت الى هذه الطاقات

والقدرات والمواهب التي يمتلكها هـذا الرائد ، ذلك أنها عوامل ذاتية بحتـة تمكنه من التفـاعل مع روح العصر بايجابية رائدة ، بل وتسـاعده عـلى مواجهـة تحـدياته واخضـاعها لمنهجه الفـكرى . وهى عوامل تختلف من انسان لآخر اختلاف بصمات الأصابع ، كما أنها لا تصنع بقدر ما تتواجد بطريقة طبيعية من خلال التفاعل بينها وبين العـوامل العامة ، فكرية كانت أو سياسـية أو اجتماعيـة أو اقتصـادية أو ثقافيـة أو حضارية .

ولذلك كان من الطبيعى بل ومن الضرورى تتبـع مسار هذه العوامل العـامة التى مهـدت لريادة هـدى شعراوى فى مجال تحرير المرأة بصفة خاصة وتحرير المجتمع بصفة عامة ، قبل أن نتتبع العـوامل الذاتيـة التى جعلت منها هدى شعراوى .

فمن الثابت تاريخيا أن مصر كان لها سبق الريادة فى مجال تحـرير المـرأة والتخلص من عصر الحـريم تدريجيا بخروجهامن ظلمات العصور المملوكية والعثمانية الى عصر التنوير والصحوة الذى افتتحته مصر فى عهد محمـد على (١٨٠٥ ـ ١٨٤٨) وفتحت عيون الشرق عليه منذ تلك الفترة المصرية الحاسمة التى شـهدت

انعكاسات التجربة المصرية وتأثيراتها فى الدولة العثمانية ذاتها . ويوضح محمد عمارة فى دراسته وتحقيقه للأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبى أن النهضة العثمانية ، بكل فروعها ، مسبوقة فى مصر ، ومقتبسة عنها . فالريادة لمصر ، لا للأتراك العثمانيين . فكان محمد على أول من أنشأ المدارس النسوية لتعليم البنات بعض الفنون والعلوم مثل التمريض وغيره .

وفى عهد محمد على أيضا نادى رفاعة الطهطاوى (١٨٠١ ــ ١٨٧٣) فى كتابه « تخليص الابريز فى تلخيص باريز » ١٨٣٠ بتعليم المرأة ، وهو الكتاب الذى سرعان ما ترجم الى التركية وتلقفه المثقفون المستنيرون فى تركيا بترحاب واضح ، برغم مطاردة السلطات لهم هناك . كذلك كان الطهطاوى عضوا فى « لجنة تنظيم التعليم » التى نادت فى عام ١٨٣٦ « بالعمل لتعليم البنات فى مصر » تعليما لا يقتصر على الضرورات المنزلية فحسب .

وواصل الطهطاوى استراتيجيته الحضارية فى مجال تحرير المرأة فأصدر عام ١٨٧٢ كتابه « المرشد الأمين للبنات والبنين » وكان بذلك أول كتاب عربى حديث فى التربية بصفة عامة وتعليم البنات بصفة

خاصة ، اعتمد فيه الطهطاوى على الدراسات التربوية الأوروبية في عصره ، كما ضمنه اقتباسات عديدة من المؤلفات العربية فى التراث الدينى والأدبى ، وذلك على سبيل مزج المعاصرة بالأصالة · ولم تكن التربية فى نظر الطهطاوى مجرد تربية مدرسية بل هى تربية دينية وسياسية واجتماعية شاملة ·

ويبلور محمود فهمى حجازى فى كتابه « أصول الفكر العربى الحديث عند الطهطاوى » قضية المرأة عنده من خلال كتابيه « تخليص الابريز فى تلخيص باريز » و «المرشد الأمين للبنات والبنين» · فقد كانت قضية المرأة واختلاف مكانتها فى المجتمعات الأوروبية عن وضعها فى الشرق الاسلامى تشغل اهتمام الكثيرين منذ الحملة الفرنسية على مصر · واذا كان الجبرتى قد أدان خروج المرأة الفرنسية الى الحياة العامة فانه بهذه الادانة يعكس الاتجاه العام الذى ساد الشرق الاسلامى فى ذلك الوقت فيما يتصل بقضية السفور · وقد كانت الصورة السائدة فى المجتمع المصرى والعربى حتى عصر الطهطاوى عن سفور المرأة مرتبطة بأحداث الحملة الفرنسية على مصر ·

لكن ريادة الطهطاوى منعته من قبول حكم الجبرتى

على عواهنه ، فقد وجد لزاما عليه أن يوضح هذه القضية من جوانبها المختلفة وألا يكتفي بالأحكام العامة البسيطة كما فعل الجبرتى • كان الجبرتى ماهرا في وصف الظواهر كما تبدو لبصره ، أما الطهطاوى فقد استعان ببصيرته لتحليل أسبابها ودوافعها فانتقل بذلك من مرحلة الوصف والسرد الى مرحلة التفسير والتقنين • ولذلك ذكر الطهطاوى أن « وقوع اللخبطة بالنسبة لعفة النساء لا يأتى من كشفهن أو سترهن ، بل منشأ ذلك التربية الجيدة والخسيسة ، والتعود على محبة واحد دون غيره ، وعدم التشريك فى المحبة ، والالتئام بين الزوجين » • فالعفة فى رأى الطهطاوى نتيجة التربية ، أما خروج المرأة الى الحياة الاجتماعية فيعد قضية أخرى • وعلى هذا لا تؤدى مشاركة المرأة الفرنسية فى الحياة العامة إلى قلة العفة ، لأن العفة مرتبطة أساسا بحسن التربية •

ولذلك لا يجد الطهطاوى حرجا فى وجود السيدات فى المقاهى أو الأماكن العامة التى يرتادها أرباب الحشمة على حد قوله ، بل أكد أن الرقص والموسيقى والغناء من وسائل الامتاع الفنى فى المجتمعات الأوروبية ، ولا تعد فيها من الملذات المبتذلة أو

الممارسات غير المقبولة . فالرقص الأوروبى ـ فى رأى الطهطاوى ـ فن ورياضة جسدية . واذا كانت الحياة الاجتماعية فى فرنسا تنهض على مشاركة الرجل والمرأة فى كل مناحى الحياة ، فان الرقص الأوروبى تعبير رقيق عن هذه المشاركة ، وبهذا يختلف عن الرقص الشرقى الذى يقتصر على استعراض مفاتن جسد الراقصة أمام عيون الرجال النهمة . وهذا الاستعراض الذى يهدف أساسا الى تهييج الشهوات ـ على حد قول الطهطاوى ـ هو العلاقة الوحيدة بين الراقصة والعيون المتمسحة بجسدها شبه العارى ، ولذلك فهى علاقة عبودية وليست علاقة مشاركة . أى أنها تجسد علاقة الرجل بالمرأة فى المجتمع الشرقى على حقيقتها .

ويشير الطهطاوى الى مكانة المرأة فى المجتمعات الأوروبية بأنها موضع احترام الرجل وتقديره ، ذلك أن احترامه لها احترام لنفسه فى الوقت ذاته ، وثقته فيها جزء من ثقته فى نفسه . وهذا يدل على مدى تفتح الطهطاوى واستيعابه لحضارة العصر وقيمه التى تفرد لحقوق الانسان ـ والمرأة بالطبع ـ مكانة مقدسة فى فكره وسلوكه . لم ينبهر الطهطاوى بهذه الحضارة حتى لا يسير خلفها منقادا كالأعمى ، وفى الوقت

نفسه لم يرفضها بدافع التزمت أو ضيق الأفق ، بل استطاع فى هذه المرحلة المبكرة من عصر التنوير المصرى أن ينظر اليها نظرة فاحصة موضوعية بحيث آخذ منها ما يتفق مع تراثنا وتقاليدنا ، ويطورها ويجددها وينميها ، وتغاضى عما يمكن أن يشوه كياننا القومى نتيجة للتقليد الأعمى الساذج ٠

كانت هذه هى بعض الدروس المستفادة التى سجلها الطهطاوى فى كتابه « تخليص الابريز فى تلخيص باريز » ، أما كتابه « المرشد الأمين للبنات والبنين » الذى ألفه بتكليف من « ديوان المدارس » كى يدرس فى مدارس البنات ، فقد احتوى أول نظرية شبه متكاملة يقدمها مفكر عربى لقضية تحرير المرأة فى عصرنا الحديث ، وركز على وسائل التربية السليمة التى تؤهل المرأة للقيام بدورها المتنوع الجوانب فى الحياة العامة ٠ فقد قارن الطهطاوى بين الرجل والمرأة من الناحية الجسدية والنفسية ليصل الى نتيجة حاسمة تتمثل فى أن الاختلاف بينهما يتركز فى الذكورة والأنوثة فقط ٠ بل انه أوضح أن للمرأة مجموعة من السمات النفسية والاجتماعية ما يجعلها فى منزلة سامية بالنسبة للرجل٠ فقد جبلت على الشفقة والرحمة والعطف والحنان

والرفق واللين وغير ذلك من الخصائص التي يجب أن نتعرف عليها وننميها بالتربية . كذلك لاحظ الطهطاوى صفات أخرى فى المرأة مثل الحياء ، ورهافة الحس ، وحدة الذكاء ، واللماحية اذ أنها تفهم الفكرة بأدنى اشارة وأقصر عبارة مما لا يدركه الرجل الا بصريح العبارة على حد قوله .

فالمرأة تقوم بكل مسئوليات الحياة المنزلية والتمريض ، الى جانب واجباتها فى الحياة الاجتماعية . والمرأة المتعلمة المثقفة المستنيرة تربى أولادها التربية المناسبة ، أى أنها المدرسة التى يتخرج فيها عظماء الرجال الذين يصنعون تاريخ شعوبهم . واذا كانت البنت تقلد أمها بصفتها مثلها الأعلى ، فان الأم المثقفة خير قدوة لبناتها . ولا تقتصر قيمة المرأة عند الطهطاوى على دورها كزوجة وأم بل تمتد لتشمل كيانها كانسان له من الحقوق مثل ما عليه من الواجبات . ولذلك من حقها أن تشتغل بالأعمال العامة فى المجتمع اذا كانت ظروفها تحتم أو تتيح لها ذلك .

وهذه الدعوة الجريئة الرائدة لم يعرفها المجتمع العربى من قبل . فقد كان التبرير السائد فى عصر

الطهطاوى أن بقاء المرأة فى البيت يصون أخلاقها ويحفظ لها شرفها ، وأن خروجها الى الحياة العامة يعرضها للغواية والاغراء والهاوية • لكن الطهطاوى الذى خبر خروج المرأة الفرنسية الى الحياة العامة ، ورأى فى قضية العفة موضوعا تربويا لا علاقة له بخروج المرأة أو التزامها عقر دارها نادى بحق المرأة فى العمل قائلا : « العمل يصون المرأة عما لا يليق ويقربها من الفضيلة • واذا كانت البطالة مذمومة فى حق الرجال فهى مذمة عظيمة فى حق النساء » • كما أنه وصف المرأة الجاهلة العاطلة الخاملة بأنها « أسيرة مستعبدة استعبادا معنويا » •

هذا هو الدور الريادى الذى قام به رفاعة الطهطاوى فى مجال تحرير المرأة واخراجها من ظلمات الجهل والعبودية الى نور العلم والحرية • وهو دور كان له من الثمار الناضجة ما جنته المرأة المصرية عبر الأجيال التى تلته • فقد ساهمت بجهد ملحوظ فى نضال عرابى العادل ضد النفوذ الشركسى فى الجيش ، وضد سيطرة القيادات التركية فى كل موقع ، وضد الخديوى توفيق فى أثناء الثورة العرابية كما أوضحت آمال السبكى

فى كتابها « الحركة النسائية فى مصر ما بين الثـورتين ١٩١٩ و ١٩٥٢ » ٠

وكانت شهادة الأجنبى خير دليل عملى عـلى الدور الريادى الذى قامت به المرأة المصرية فى أثناء الثـورة العرابية برغم انها لم تكن قد تخلصت بعد من قيود عصر الحـريم ٠ فقـد كلف الشـاعر والـرحالة البريطانى ويلفريد بلنت (١٨٤٠ ـ ١٩٢٢) صـديقه المحامى ا ٠ م ٠ برودلى للدفاع عن عرابى الذى واجه حـكم الاعدام بعد فشل ثورته ، لأن بلنت كان يتفجر حماسا للقضية المصرية والقضية الايرلندية وغيرهما من قضايا التحـرر من الاحتـلال البريطانى لدرجة أنه عـوقب بالسـجن فى بلده نتيجة لانهماكه فى أنشـطة سياسية وعسكرية مضـادة للامبراطورية البريطانيـة ٠ ومن حسن الحظ فان برودلى لم يكتف بدوره فى الدفاع عن عرابى بل كتب كتابا بعنوان « كيف هزمنا عرابى » نشره فى انجلترا عام ١٨٨٤ سجل فيه الدور المشرف الذى لعبته المرأة المصرية لمساندة عرابى ضـد قوى القهر والاحتلال ، ولم تتخل عنه حتى فى أشد الساعات حلكة عندما تشتت قواته وتحتمت هزيمته ٠ فقد جاء برودلى الى مصر بنفس النظرة التقليدية التى تبنـاها

الغرب تجاه المرأة المصرية أو الشرقية بصفة عامة . لم تكن في نظره سوى امرأة محجبة ، ضعيفة ، سلبية ، مهزوزة ، تخرج من معتقل الأب كي تقضى بقية عمرها في سجن الزوج ، هذا اذا سمح لها بالبقاء فيه ولم تغره شهواته ونزواته بطردها الى الشارع اذا وجد من تفضلها في اشباع شهواته بصفته السيد المطلق . أى صورة المرأة فى عصر الحريم بكل خضوعها وخنوعها وذلها وضياعها .

لكن برودلى ذهل لشخصية المرأة المصرية القوية الناضجة برغم القيود التى تكبلها ، لدرجة أنه اعترف بأن نفوذ المرأة وتأثيرها على مجريات الأمور فى مصر واضح لكل ذى عينين . ولم يقتصر الحماس والتأييد لثورة عرابى على نساء الطبقة الكادحة والبورجوازية، بل امتدا الى أميرات الأسرة المالكة الخديوية اللاتى حاولن اخفاء حقيقة شعورهن القوى المتعاطف مع عرابى ، ولم يخرج على هذا الشعور القومى الجارف سوى أم الخديوى توفيق وزوجته .

ولم يكن حماس المرأة وتأييدها لثورة عرابى معنويا فحسب ، بل قام عدد منهن بجمع التبرعات نكاية

في توفيق في اليوم الثاني لقصف الاسكندرية بمدافع الأســطول البريطاني ، وجمعن فرقة منهن لتحضــير الضمادات والسوائل المطهرة وجبائر الجرحى لارسالها للأطباء العاملين في الخطوط الأمامية في معــركة كفر الدوار · أما الجنود الانجليز الذين ضلوا الطريق في الأحياء الشعبية فلم يعد معظمهم الى قواعدهم ســالما ، فقد كانت النساء لهم بالمرصاد خلف النوافذ والمشربيات حيث الأحجار الثقيلة المدببة وآواني الطهي النحاسية وصفائح الزيت المغلى تنهال على رءوسهم من كل حدب وصوب · ويؤكد برودلى آن ما فعلته النساء المحجبات كان أقوى رد عملي على الذين آنكروا على ثورة عرابى أنها ثورة شعبية شاملة ·

وكان برودلى يقيم في فندق شبرد القــديم الذى كان يقع في شارع الألفى · وحدث آن جاءه بعد انتهاء محاكمة عرابى ببضعة أيام رسول برسالة غامضــة ، وعندما فضها اكتشف آنهــا مؤرخة في ١٥ ديســمبر ١٨٨٢ وبامضاء سيدة مجهولة اكتفت بكلمة «مصرية»، وفيها تشــكره لموقفه الشريف العــادل في الدفاع عن عرابى الذى قاتل من آجل استقلال مصر ، وتعبر عن عرفان نساء مصر وشعب مصر كله بجميله لما قام به من

خـدمات جليلة فى مجـال الدفاع عن قضية العـدالة الانسانية • ثم تعبر السـيدة المجهـولة عن سـعادتها بوجود أحرار أمثاله فى انجلترا يجاهدون بقولة الحق حتى لو كانت ضـد بلدهم • ثم تختم رسـالتها المثيرة بشـكر ويلفريد بلنت الذى أوفد برودلى الى مصر فى مهمته الانسانية العظيمة •

ومن الواضح أن هذه السيدة الغامضة كانت تتمتع بوعى سياسى عميق وشامل ، اذ أنها بهذا الخطاب أرادت أن تستقطب الرأى العـام الحر فى بريطانيـا لعـدالة القضية المصرية بأسلوب موضوعى يصنف أبناء الوطن الواحد طبقا لمواقفهم ولا يضعهم كلهم تحت بند واحد يتمثل فى الجنسية الواحدة •

ولم تتوقف دهشة برودلى عند هذا الحد بل فوجىء بعد بضعة أيام من هذه الرسالة ، بفتاة ذات جمال ساحر جاءت لزيارته شخصيا وهى تتفجر حماسـا لتقدم له صورة حقيقية لموقف المرأة المصرية تجاه الأحداث الأخيرة التى انتهت بمحاكمة عرابى • فقد صـارحته بأن كل فتاة وسـيدة مصرية كانت تؤيد وتتعاطف مع عرابى لأنه كان يسعى لخير مصر ، بل ان معظم النساء اعتقدن

أن الخديوي توفيق نفسه كان يؤيد عرابي ، لكن عندما إكتشفن أنه يخون مصر انقلبن عليه بمنتهى العنف ٠ وكان توفيق واعيا بكراهيــة النســاء له فحــاول أن يكتسب تأييد سيدات كبار الأسر وبناتها من خلال أمه وزوجته لكن مساعيه باءت بالفشل الذريع لدرجة أن أميرات البيت الخديوى أنفسهن كرهنه ، بل وصارحته احداهن بحقيقة رأيهن فى مواقفه السياسية ٠ لــكن توفيقا لم يتراجع ورحل الى الاسكندرية ليؤكد ولاءه التام والنهائى للانجليز ، كذلك لم تتراجع النساء على كل المستويات وصممن على أن الزعامة الشعبية الفعلية قد عقدت فى البلاد لعرابى ٠

وتوضح آمال السبكى فى كتابها « الحركة النسائية فى مصر » كيف ســاهمت كل ســيدة وفتاة فى نفقات الحرب حسب مواردها ، وذلك من خلال الحديث المثير الذى دار بين هــذه الفتــاة المصرية الجميلة المتحمســة والمحامى الانجليزى برودلى حين قالت :

« كنا نجمع التبرعات بانتظام فنشتغل بجد طوال اليــوم فى اعداد ما يلزم الجنــود من أدوية وأغطيــة وضمادات ، وظللنا نعمل بحماس ونلهب الشعور مع

عرابى ، وضبد توفيق حتى كان ذات يوم ، اذ جاء عرابى الى القاهرة وسرت اشاعة قوية بأنه قد جاء معه برأس ويسلى والأميرال سيمور ، وطغى علينـا الفرح ولـكن ما لبثنـا أن عرفنـا الحقيقة المرة وأن العـكس هـو ما حدث ، وأن عرابى قد منى بهزيمة ساحقة ، واستولى علينا ذهول وحزن أليم ، واستغرقنا فى بكاء مستمر ، حتى بلغت حالتنا مبلغ اليأس الأليم • وحينما عاد توفيق منتصرا مزهوا الى القـاهرة توقعنا أن يصب العـذاب والعنت على نصيرات عرابى • وبالفعل ما ان وصل حتى أرسل الى الفتـاة التى كانت قد أرسـلت خطابها الى عرابى وأعلن أنه سيذيقها العذاب المر، لولا أن تدخلت أمهـا ، وأعلنت بجـرأة انهـا هى التى كتبت الخطاب ووقعته باسم ابنتها • وحينما خرجت الأم وابنتها من عنـد توفيق التقت بالأغا الذى أبلغ الخـديوى توفيق بقصة الخطاب ، ووشى اليـه ، فأمسـكت الأم بكرسى وضربته على رأسه تريد أن تفتك به •

أمر توفيق بجمعنـا كلنا وبعد ما دله جواسيسـه علينا ، واذا بأمه تنهال علينـا بالسباب ، وأعلنت فى تشف أن بطلنا عرابى سيسلمه الانجليز الى الخديوى لكى يعدم ببطء على الخازوق ، ثم قرأت علينا قائمة بأسماء

زعيمــات حركتنــا وأعلنت أنه قد تقــرر اعدامهن ، وسرى فينا الرعب الى أن تحققنا بعد بضعة أيام أنه لا توفيق ولا أمه يستطيعان عمــل أى شىء بغير موافقة الانجليز أسيادهم وعندما أعلن نفى عرابى لبست أم توفيق الحداد وسرى الوجوم فى السراى » ٠

الى هذا الحد بلغ الوعى الســياسى الناضج بالمرأة المصرية فى تلك المرحلة المبــكرة من تاريخ كفاحنــا الحديث ، بل وقدرتها على اخراج هذا الوعى الى حيز التنفيذ برغم كل القيود والعقبات والمخاوف التى بلغت حد مواجهة عقوبة الاعدام ، وجواسيس الخديوى الذين تابعوا كل تحركاتهن خطوة بخطوة ٠ بل ويبلغ هــذا الوعى قمته عندما ينتقل من المستوى المحلى الى المستوى الدولى فى حديث هذه الفتاة المصرية الجميلة المتحمسة للمحامى الانجليزى وهى تحاول اظهار صــورة توفيق الحقيقية أمام الانجليز حتى لا يظنوا رسوخ مكانته التى يمكن أن يركنوا اليها فى استراتيجيتهم الامبريالية فى المنطقة ٠ فقد ختمت الفتاة حديثها بقولها :

« أحب أن أقرر لك كى تعلن للعالم كله أنه مادام توفيق يحكم مصر ، فلن يكون هناك سلام لا لكم ولا لنا

ولا لمصر كلها · لقد كان بامكان توفيق أن يتزعم الحركة الوطنية ، وأن يكتسب ثقة الشعب المصرى ولكنه طرح هذه الفرصة وأخذ يناور لبريطانيا » ·

وبذلك أكدت الفتاة للرأى العـام البريطاني بأن احتلال بريطانيا لمصر لن يكون نزهة سعيدة ، وأن من يتسبب في المتاعب لمصر لن يهرب بجلده منها · وتحققت نبوءة الفتاة على مدى سـبعين عاما تالية حتى تحقق الجـلاء · وكان توفيق بدوره واعيـا بالضغوط التى تمارسـها المرأة المصرية على مجـريات الأمور فى مصر بهدف تحويل مساراتها ضده لدرجة أنه قال فى حديث طويل مع المحامى برودلى انه كان يسـتطيع أن يعيش فى سلام لولا شيئان هما أشد ما فى مصر خطرا عليه ، وهما : أقلام الصحفيين ، وألسنة النساء ·

ولم تكن مشاركة المرأة المصرية فى الثورة العرابية مجرد طفرة طارئة لم تلبث أن تخبو، بل كانت حلقة فى سلسلة ممتدة بتاريخ مصر الحـديث · وهى سـلسلة شارك فى صنعها وتقويتها رواد من أمثال قاسم أمين ، وملك حفنى ناصف (باحثة البادية) ، وعائشة تيمور، وهدى شعراوى ، ومحمـد عبـده ، ولطفى السـيد ،

ومنصور فهمي ، وطه حسين ، وسلامة موسى وغيرهم · ولم تسع المرأة لتحسين أوضاعها فحسب ، بل امتد كفاحها ليشمل القضية المصرية برمتها ، ولذلك استمرت دعوتها ضد الاحتلال الأجنبي ، ومناداتها بضرورة الاصلاحات الديمقراطية كبداية للنهضة الوطنية الشاملة · وكانت الصحافة من أهم الأسلحة التي استعانت بها المرأة في كفاحها لدرجة أن آمال السبكي تذكر صحفا نسائية على سبيل المثال لا الحصر في كتابها ، فلا تجد صحيفة واحدة الآن يمكن أن تضاهي احداها ونحن في الربع الأخير من القرن العشرين · ففي عام ١٨٩٢ صدرت مجلة « السيدات » لهند نوفل ، ثم « الهوانم » و « المرأة في الاسلام » عام ١٩٠٠ ، و « شجرة الدر » ١٩٠١ ، و « السعادة » ١٩٠٢ ، و « السيدات والبنات » ١٩٠٣ ، و « فتاة الشرق » ١٩٠٦ ، و « ترقية المرأة » ١٩٠٨ ، و « فتاة النيل » ١٩١٣ ·

وبرغم أن الحزب الوطني ـ سواء في عهد مصطفى كامل أو محمد فريد ـ لم يتبن قضية المرأة ، لتركيز كل اهتمامه على قضية الجلاء ، فان المرأة المصرية لم تتقاعس عن تشجيعه وتأييده في كفاحه ، لدرجة أن

السيدة انشراح شوقي تبادر بارسال رسـالة تشـجيع وتأييد الى المؤتمر الوطنى الذى عقده الحـزب الوطنى بزعامة محمد فريد عام ١٩١١ فى بروكسـل عاصمة بلجيكا ٠

ولعل قاسم أمين يمثل القمة التى برزت فى مجال تحرير المرأة بعد قمة الطهطاوى ، والعـلامة البـارزة الراسخة التى سبقت القمة التى تربعت هدى شعراوى عليها فيما بعد ٠ فقد ولد قاسم أمين عام ١٨٦٣ لأسرة أرستقراطية وكان نابها فى دراسته لدرجة أنه حصل على ليسانس الحقـوق عام ١٨٨١ ولم يكن قد تجـاوز التاسـعة عشرة من عمره ، وجاء ترتيبه الأول عـلى دفعته ٠ ولم يطل عمله بالمحاماة اذ سافر فى نفس عام تخرجه فى بعثة دراسية الى جامعـة مونبلييه بفرنسـا حيث قضى أربع سنوات ليحصل على شهادتها بتفوق فى عام ١٨٨٥ ، وحيث تفتحت عيناه على مجتمع يكن كل الاحترام والتقدير للمرأة التى جمعت بين جمال الأنثى وسحرها وبين عقل الرجل ونضجه ٠ وأدرك من خلال ممارسته العملية للحياة الاجتماعية فى فرنسا أن تحرر المرأة كان الركيزة الأساس التى نهض عليهـا تقـدم الأمة الفرنسية كلها ، وبالتالى فان تخلف المجتمعـات

الشرقية راجع الى عوامل الكبت والقهر والذل والحرمان التى تحيل حياة المرأة الشرقية الى كابوس متصـل من الميلاد الى الممات ٠

ومن خلال استمرار التفاعل بين الممارسة العملية والثقافة الشاملة العميقة فى عقل قاسم أمين ووجدانه نشر كتابه « تحرير المرأة » عام ١٨٩٩ فأحدث ضجة مدوية فى مصر خاصة ودول الشرق عامة ، وأثار أخطر وأكبر معركة فكرية حديثة حـول قضية المرأة من كل جوانبها ٠ فقد كانت ريادته من الجرأة والثورية بحيث نادى برفع الحجاب ، وتعليم المرأة ، وتقييد الحق المطلق الممنوح للرجل فى الطلاق ، وتحـريم تعدد الزوجات الا للضرورة كما ورد فى القرآن ، وضمان حق المرأة فى العمل فى حالة الحاجة اليه ٠

وبالطبع هاجت الدنيا وماجت ، واجتاحته عواصف التجريح والسخرية والاهانة والطعن والتكفير والادانة سواء أكانت فى خطب أو مواعظ أو ندوات أو مقالات أو أحاديث أو كتب كاملة ، لكنه ظل راسخا فى مكانه ومصرا على رأيه ، لا يتحرك بعيدا عنه قيـد أنملة ٠ فقد كان من عمق البصيرة وشمول الثقافة بحيث ربط بين تخلف المرأة وعبوديتها وسيادة النظم المستبدة عـلى

المجتمعات الشرقية ، ورفض أن يكـون الاســلام ، أو طبيعة الأشياء ، أو خصائص ضعف المرأة وقصورها ، من العوامل التى ميزت بين الرجال والنســاء وقسمت شئون الحياة بينهم تلك القسمة غير العادلة ، وانما هو الاستبداد الذى جعل من المرأة احدى فرائسه ، فكبلها بالقيود والأغلال ، ولذلك فان تحررها مرتبط بتحرر الرجل من الاستبداد ، أى بتحرر المجتمع ككل • يقول قاسم أمين عن هذه القضية المصيرية :

« ان مبدأ تشكيل الحكومة كان على صورةالعائلة ، والحكومة التى تؤسس على السلطة الاستبدادية لا ينتظر منها أن تعمل على اكتساب المرأة حقوقها وحريتهـا • فهناك تلازم بين الحالة السياسية والحالة العائلية فى كل بلد، ففى كل مكان حط الرجل من منزلة المرأة وعاملها معاملة الرقيق ، حط بنفسه وأفقدها وجدان الحرية ، وبالعكس ، فى البلاد التى تتمتع فيها النساء بحريتهن الشخصية يتمتع الرجال بحريتهم السياسية ، فالحالتان مرتبطتان ارتباطا كليا •

وآن للسائل آن يســأل : أى الحــالتين آثرت فى الأخــرى ؟ نقــول : انهما متفاعلتان ، وان لكل منهما تأثيرا فى مقابلتها ، وبعبارة آخرى : ان شكل الحكومة

يؤثر فى الآداب المنزليـة والآداب المنزليـة تؤثر فى الهيئة الاجتماعية ٠

أنظر الى البلاد الشرقية ، تجـد أن المرأة فى رق الرجل ، والرجل فى رق الحاكم ، فهو ظالم فى بيتـه مظلوم اذا خرج منه ! ثم أنظر الى البلاد الأورباوية ، تجد أن حكوماتها مؤسسة على الحرية واحترام الحقـوق الشخصية ، فارتفع شأن النساء فيها الى درجة عالية من الاعتبار وحرية الفكر والعمل » ٠

بهذه النظرة الشاملة العميقة يضع قاسم أمين يده على الفلسفة التى سـادت العالم بطول القرن العشرين والتى نادت بأن تحرير المرأة يبدأ بتحـرير الرجـل نفسه ٠ فالحر الحقيقى هو الذى يحب بل ويحارب من أجل حرية الآخرين فى كل أنحـاء العالم ، فما بالك بأقرب الناس اليـه ؟! ذلك أن الحرية كل لا يتجزأ ٠ ولذلك اهتم قاسم أمين بالحرية الاقتصادية للمرأة ، لأن الحـرية ـ فى نظره ـ ليست شـعارات براقة ترفع ، وخطب منمقة تلقى ، بل ممارسـة عملية لا تتـوافر الا بوجود القاعدة الاقتصادية الراسـخة التى تنهض عليها ٠ فمن لا يملك قوته لا يمكن أن يملك حريتـه وبالتالى كيانه الانسانى ككل ٠ يقول قاسم أمين :

« ان اعفاء المرأة من أول واجب عليهــا ، وهــو التأهل لكسب ضروريات الحياة بنفسها ، هــو السبب الذى جر ضياع حقوقها ، فان الرجل لما كان مسئولا عن كل شيء ، استأثر بالحق فى التمتع بكل حق ، ولم يبق للمرأة حظ فى نظره الا كما يكون لحيوان لطيف يوفيه صاحبه ما يكفيه من لوازمه تفضــلا منــه ، عــلى أن يتسلى به ! » .

ولم تكن القضية فى نظر قاسم أمين مجرد حماس متدفق يتصور أن المرأة يمكن أن تتحــول من حال الى حال بمجــرد اعلان النــوايا الطيبة ، بل ان تفــكيره الموضوعى العلمى العقلانى جعله يؤكد عــلى صــعوبة المهمة القومية التى يجب أن تقع عــلى عاتق الحــكومة والشعب معا ، والتى تســتغرق وقتا طــويلا ، اذ أن التخلص من رواسب وتراكمات عصــور الظلم والظلام المملوكية والعثمانية التى استمرت قرونا ليس بالأمر اليسير مهما حسنت النوايا ، ولابد من رسم استراتيجية حضارية شــاملة وطــويلة المــدى حتى تستعيد المرأة المصرية انسانيتها المهدرة . يقول فى كتابه « المرأة الجديدة » الذى صدر عام ١٩٠٠ :

« انى ما طلبت ولا أطلب المســـاواة بين المــرأة والرجل فى شىء من المزايا والحقوق السياسية ، لا لأنى أعتقد أن الحجر على المرأة أن تتناول الأشغال العمومية، حجرا عاما مؤبدا ، هو مبدأ لازم للنظام الاجتماعى ، بل لأنى أرى أننــا لا نزال الى الآن فى احتيــاج كبير لرجال يحسنون القيام بالأعمال العمومية ، وأن المرأة المصرية ليست مستعدة اليوم لشىء مطلقا ، ويلزمها أن تقضى أعواما فى تربية عقلها بالعلم والتجــارب حتى تتهيأ الى مسابقة الرجال فى ميدان الحياة العمومية» .

وبذلك يؤمن قاسم أمين أن الحرية مسئولية ، وعلى من يواجه المسئولية أن يتسلح بالامكانات التى تمكنه من تحملها . ذلك أن من يخوض معركة دون الاستعداد والتجهيز لها لابد أن يصاب بنكسة قد تعيده الى حال أسوأ مما كان عليه . ومن هنا كان تركيز قاسم أمين على سلاح العلم والثقافة والاستنارة . فالجهل يجعل من الانسان عدوا لنفسه وبالتالى تتلاشى تحت أقدامه كل علامات الطريق المؤدية الى المستقبل .

لكن الريادة الفكرية والحضارية فى مجال تحــرير المرأة لم تقتصر فى عهد ما قبل هدى شــعراوى عــلى

الطهطاوى وقاسم أمين فحسب، بل امتدت لتشمل رائدة جليلة رحلت فى عمر الزهور ، لكنها تركت آثارا راسخة وعلامات مضيئة على طريق تحرير المرأة المصرية . هى ملك حفنى ناصف التى اشتهرت بلقب « باحثة البادية » ، والتى نجد لها صورة متكاملة الأبعاد فى كتاب مجد الدين حفنى ناصف « آثار باحثة البادية » الذى صدر عام ١٩٦٢ . فقد كانت الابنة الكبرى للشاعر والقاضى حفنى ناصف . ولدت فى ديسمبر ١٨٨٦ ورحلت فى أكتوبر ١٩١٨ عن عمر لم يتجاوز الثانية والثلاثين .

كانت معجبة أشد الاعجاب بالشاعرة الرائدة عائشة تيمور التى كانت أول من اقتحم دنيا الأدب الحديث من النساء . والتى توفيت عام ١٩١٢ . كتبت باحثة البادية فيها قصيدة رثاء وكانت لا تزال طالبة بقسم المعلمات بالمدرسة « السنية » . ونشرت لها الصحيفة القصيدة فاشتهر اسمها وسارت على درب عائشة تيمور ، وان لم تقتصر فى كفاحها على الأدب والشعر بل قررت أن تعمل بالتدريس فحطمت بذلك الفكرة التقليدية التى أكدت أن العمل للفقراء المحتاجين فحسب ، وأثبتت أنه قيمة فى حد ذاته وأنه سلاح

لتحقيق ذات المــرأة فى عالم الــرجال ، وبذلك فتحت الباب لبنات طبقتها كى يخضن غماره دون حــرج أو حساسية ٠

كانت قد حصلت على دبلوم المعلمات عام ١٩٠٣ وعملت بالتدريس حتى عام ١٩٠٧ عندما تزوجت من عبد الستار الباسل شقيق الزعيم الوفدى حمد الباسل، وانتقلت لتعيش معــه فى الفيــوم حتى وفاتهــا عام ١٩١٨ ٠ وكانت من أغزر فترات حياتها فكرا وأدبا ، خاصة على صفحات « الجريدة » التى أصدرها أحمــد لطفى السيد ، وكانت توقع أشعارها ومقالاتها باسم « باحثة البادية » لعشقها لحياة الصحراء والبداوة التى عاشتها مع زوجها ٠

عــلى صفحات « الجريدة » عبرت عن موقفهــا من قضية المرأة فى مقالات متتابعة عن العوامل المؤدية الى السعادة الزوجية ، وضرورة أن يختار الرجل زوجته على أساس فكرى ناضج، وألا يترك اختيار شريكة عمره للعجائز ٠ فمن حقه أن يرى عروسه قبل الزواج حتى لا يفاجأ ليلة الزفاف بما لا تحمــد عقبــاه ٠ كذلك طالبت باحثة البادية بتخفيف وطأة الحجاب عن الفتيات قبل الزواج حتى يتسنى للشباب رؤيتهن ، بل وطالبت

بتعويد الناشئات على السفور التدريجي فى اطار ما أباحه الاسلام ، من ظهور الكفين والقدمين والوجه كاملا • ونادت أيضا بتقييد تعدد الزوجات ثم رفضته تماما فى نهاية حياتها ، وفضلت أن تطلق المرأة على أن تعيش مع ضرة لأن طلاق الحرية خير من زواج العبودية • وكانت باحثة البادية فى منتهى الموضوعية لأنها لم تهاجم الرجال فحسب بل انتقدت سلبيةالنساء واستسلامهن للجهل والتخلف ، وأكدت على أن اصلاح المجتمع لا يتأتى الا بتغيير شامل فى عادات وتقاليد وعيوب الجنسين عن طريق تنوير العقول بالتعليم الذى لابد أن يتاح للرجل والمرأة على قدم المساواة •

ولم تكتف باحثة البادية بالمقالات والأشعار على صفحات « الجريدة » بل ألقت عدة خطب فى نادى « حزب الأمة » وبعض المحافل المدرسية ، فنجدها تقول فى احدى خطبها :

« يقول لنا الرجال ويجزمون انكن خلقتن للبيت ، ونحن خلقنا لجلب المعاش فليت شعرى أى فرمان صدر بذلك من عند الله • ومن أين لهم معرفة ذلك والجزم به ولم يصدر به كتاب • ها هن نساء الفلاحين

والصعايدة يساعدن رجالهن فى حرث الأرض وزراعتها ، وحمل المحاصيل ودق السنابل وسوق المواشى ورفع المياه وغير ذلك من الأعمال ، وأنهن يقدرن عليه تمام المقدرة كأشد الرجال وترون مع ذلك أولادهن أشداء أصحاء » ٠

ولم تقصد باحثة البادية بهذا أن تهجر المرأة مسئولياتها المنزلية كزوجة وأم الى احتراف المحاماة والقضاء وادارة القاطرات ، لكن اذا وجدت فى نفسها القدرة على القيام بهذه المسئوليات مجتمعة فيجب ألا يعوق طريقها معارض ٠ أما فترة الحمل والولادة فشأنها فى ذلك شأن فترة المرض عند الرجل ، ولا يوجد رجل لم يقعده المرض عن العمل حتى يعتبر حمل المرأة وانجابها معوقين لها عن العمل ٠ ولذلك لا وجه على الاطلاق للتفرقة المفتعلة بينهما ٠

ولم تقتصر ريادة باحثة البادية فى تلك المرحلة المبكرة من تاريخ مصر الحديث على قضية المرأة فحسب بل شملت القضية المصرية ككل، وأثبتت بذلك عمليا أن الوعى السياسى عند المرأة لا يقل بحال من الأحوال عن الرجل ٠ فلم تحتمل احياء قانون المطبوعات الجائر عام

١٩٠٩ وأعلنت ثورتها العارمة عليه فى قصيدة ملتهبة، بل وطالبت المصريين بالثورة عليه حتى أن الحكومة شرعت فى القاء القبض عليها ومحاكمتها ، لكنها تراجعت خشية اثارة الرأى العام . وهذا يعنى أن المرأة المصرية ـ ممثلة فى شخص باحثة البادية ـ نجحت فى ايجاد رأى عام كانت هى جزءا لا يتجزأ منه .

وكانت باحثة البادية من حدة الوعى وعمق البصيرة بحيث انتهزت كل مناسبة أو موقف قومى فى اثارة قضية المرأة المضطهدة المظلومة . فمثلا عندما رحل الامام محمد عبده عام ١٩٠٥ رثته فى قصيدة من خمسة وثلاثين بيتا ، لم تترك فيها العنان لدموعها بل ركزت على ريادة الامام وتأييده لتعليم المرأة فى مراحل التعليم المختلفة دون تمييز بين الجنسين ، وأكدت على أن أعظم تكريم للامام ليس بالبكاء على رحيله وانما بالسير على نهجه العظيم حتى تظل أفكاره حية مجددة لحياتنا .

★★★

فى عصر التنوير هذا ولدت هدى شعراوى فى ٢٣ يونيو ١٨٧٩ كى تحيل بقع الضوء المتناثرة هنا

وهناك الى شمس ساطعة لا ينكر شروقها الا كل متخلف، وجاهل ، ورجعي ، وضيق الأفق • ولعل خير تقـديم لها يتمثل فيما كتبته تلميذتها أمينة السعيد عنـدما قدمت مذكراتها التي نشرتها مجلة «حواء» عام ١٩٧٩ بمناسبة مرور مائة عام على تاريخ مولدها ، ثم نشرها « كتاب الهلال » في مجلد واحد عام ١٩٨١ • قالت أمينة السعيد :

« وهدى شعراوى هي بلا نزاع قائدة حركة تحرير المرأة في العالم الاسلامي قاطبة ، ولقد قضت ما لا يقل عن خمسين عاما من حياتها وهي في صراع مرير من أجل رفع الظلم عن المرأة المسلمة عموما • والعربيـة على وجه التخصيص ، وكانت البادئة برفع الحجـاب ، والمناداة بالمساواة الكاملة بين الجنسين لتمـكين نصف الشـعب العربى من الخـروج عن عزلته الاجتماعيـة والانطلاق الى عالم البناء والانتاج •

وموطن العظمة في هدى شعراوى آنها كانت في شخصيتها تجمع المتناقضات • فلقد ولدت في فراش من ذهب ، ولكنها تنـكرت للترف والدعة ، واختارت أن تقضى حياتها في النضال والكفاح من أجل آسمى وأنبل

الغايات . وكانت تقاليد عصرها تحرم العلم على النساء ، فتحدت هذه التقاليد بأن علمت نفسها بنفسها، وتوسعت فى طلب العلم حتى بلغت أعلى مراتب الثقافة والمعرفة ، وأتقنت ثلاث لغات ، وأصبح بيتها صالونا أدبيا وسياسيا يهرع اليه فى يوم الثلاثاء من كل أسبوع أعلام السياسة والأدب والفلسفة والفنون . وتبنت المواهب وهى مازالت فى براعمها، فأرسلت على حسابها الخاص بعثات الى الخارج من الرجال والنساء على السواء ، وخصصت للنوابغ من الشباب جوائز شخصية تشجعهم وتساعدهم على الصعود الى القمة ، والوصول بمواهبهم الفنية أو الأدبية الى مراتب الامتياز . ولا أظن أن أحدا بين قمم الحياة فى عصرها كان يفوقها حبا لمصر ، ووفاء لأرضنا الطيبة ، وجرأة على المطالبة بالحريات فى ظل أسمى وأطهر مبادىء العفة والأخلاق.

ولقد خاضت هدى شعراوى مجال السياسة الذى لم تكن تجرؤ على الاقتراب منه امرأة قبلها ، ولم تكن تخاف فى الجهر بآرائها ، والتفانى فى تحقيقها سوى الله عز وجل » .

ونضيف الى كلمات أمينة السعيد موطنا آخر من مواطن عظمة هدى شعراوى ، وهى أنها كانت أول

رائدة تجمع بين النظرية والتطبيق . فلم تكتف بالمناداة بآرائها الثورية من خلال الصحف والمجلات والندوات والخطب والمحاضرات والمؤتمرات المحلية والدولية ، بل أحــالت استراتيجيتها الحضــارية الشاملة الى هيئات وجمعيات ولجان ومؤسسات ومدارس وعيــادات طبية ودور رعــاية واتحــادات وبرامج تنفيــذية لتطبيق مبادئها واخراجها الى حيز التنفيذ الفعلى حتى يلمس الجميع ، بما فيهم خصومها ، الحقيقة المادية الراسخة لما تطالب به . فالعلم اذا لم يتحول الى عمل ايجابى مثمر سرعان ما يفقد القدرة على الاقتناع به واعتناقه .

ولعلها متعــة فكرية أن نتتبع البــدايات الأولى لجذور الريادة عند هدى شعراوى كى نضع أيدينا على عوامل التفاعل ــ سواء بالسلب أو الايجاب ــ بين روح العصر وعبقــرية الرائدة التى جعلت من أفــكارها الثورية وانجازاتها المادية نقطة تحول فى تاريخ المرأة الشرقية بصفة عامة والمصرية بصفة خاصة ، نقطة دار عندها محور عجلة التطور الانسانى والحضارى والثقافى دورة عملاقة يصعب اعادتها الى الوراء ولو للحظات . فالتاريخ لا يكرر نفسه وكل لحظــة من لحظــات الزمن تختلف عن سابقتها اختلاف بصمات الاصابع .

جذور الريادة

من الواضح أن تفاعل العوامل الوراثية مع العوامل المكتسبة من البيئة . يشكل بمرور الزمن الملامح المميزة لفكر الرائد وسلوكه · واذا كان من الصعب تتبع العوامل الوراثية بصورة متبلورة ومحددة، فانه من اليسير نسبيا تحليل العوامل المكتسبة من خلال العلاقة الجدلية القائمة على التأثر والتأثير بين الرائد وبيئته الأسرية بصفة خاصة والاجتماعية بصفة عامة، وهى علاقة تتراوح بين السلب والرفض والشجب والتمرد والثورة وبين الايجاب والتأييد والتدعيم والترسيخ لقيم جديدة يحتاجها المجتمع فى مسيرة التطور والتقدم · ذلك أن العوامل الوراثية يمكن تتبعها فقط فى أوجه التشابه أو الاختلاف الفكرى والسلوكى بين الرائد وبين آبائه وأجداده فى المراحل

المبكرة فى حياته والتى لم يكتمل فيهـا وعيه تمـاما بمجريات الأمور فى الحياة ، أما العوامل المكتسبة فتأخذ زمام المبادرة فى حياة الرائد بمجرد تبلور نظرته تجاه المجتمع والعصر • وهى عوامل ديناميكية متطورة مرنة قادرة على مواكبة تيار الحياة ، وذلك على النقيض من العوامل الوراثيـة التى غالبـا ما تتصف بالاستاتيكية والثبات ، وقد تحتاج من الرائد الى ارادة قوية ليتغلب على العناصر السلبية فيها والتى قد تتسبب فى خذلانه فى المواقف الحاسمة المرتبطة بنقاط التحول سواء فى حياته أو فى حياة مجتمعه •

ومن يدرس سيرة هدى شعراوى وتطور مراحـل كفاحها الوطنى والقومى ، يدرك أن العنصر الايجابى فى العـوامل الوراثيـة والمكتسبة كان مسـيطرا كل السيطرة على العنصر السلبى الذى لا يكاد يفصح عن وجوده فى أى موقف من مواقفها • فقد كانت مسلحة بالوعى الحاد منذ نعومة أظافرها ، وهذا الوعى المبكر منحها القدرة على الاستيعاب والتحليل ورصـد الظواهر التى تمر بها ، والتساؤل الملح عن الأسباب الكامنة خلفها والتى أدت اليها • كانت تعمل عقلها دائما فى تفسير الظواهر فى أبسط صورها ، وتتجنب التعقيدات التى

نتجت عن الرواسب والتراكمات التى تناقلتها الأجيال دون التفكير العلمى الجاد فى مدى جدواها وفائدتها فى حياتها ٠

ومن خلال فكر هدى شعراوى الذى يمكن أن نصفه بالسهل الممتنع ، استطاعت بنظرتها الثاقبة أن تصل مباشرة الى جوهر الأمور بعيدا عن الحواشى والمتون وتفسيراتها ، وتفسيرات التفسيرات ، والتفاصيل التى تعوق ولا تضيف ٠ فقد كانت تؤمن أن أقصر خط بين نقطتين هو الخط المستقيم ، وأن الدولة المتخلفة أحوج ألف مرة الى الخط المستقيم من الدولة المتقدمة ، لأن مسئوليات قومية خطيرة تقع على كاهلها من أجل اللحاق بركب الحضارة ، وليس لديها وقت لتضيعه فى الفكر المتحجر والجدل العقيم حول بدهيات فرغ العالم المتحضر من ارساء تقاليدها وأصبحت جزءا عضويا فى حياة أبنائه اليومية ٠

على هذا الجوهر الحضارى أقامت هدى شعراوى ريادتها الاجتماعية والسياسية والثقافية والانسانية والاقتصادية والفكرية المتسقة المتطورة ٠ وهى ريادة جديرة بأن نتتبع جذورها فى حياة هدى شعراوى الأسرية والاجتماعية ، والتى كانت بمثابة نقطة تحول مصيرية فى حياة مصر ٠

كان من تقاليد العصر الذى واكب طفولة هـدى شعراوى ، اخفاء حقائق الحيـاة عن الأطفال ظنـا من الكبار أنهم غير قادرين على فهمها واستيعابها ، ولذلك كان التعتيم المستمر هو السياسة المفضلة لدى الكبار تجاه الصغار • لكنهم لم يدركوا أن حب الاسـتطلاع الذى يولد مع الانسـان يدفعـه دائمـا الى التساؤل والاستفسار والبحث عن اجابات شافية لما يقـابله من ظواهر يعجز عن فهمها ، وأنه اذا عجز عن الحصول على هذه الاجابات من أولى العـلم فانه لابد أن يبحث عنها عند الجهلاء • فلم يكن لعقل الطفل أى اعتبار عند الكبار الذين لم يحاولوا أن يعلموه كيف يستخدمه وبالتـالى فانه ينشأ على التقليد والمحاكاة مما يؤدى به الى التخبط العشوائى وفقدان القدرة على تحديد مساره الذاتى فى الحياة • ولذلك كان العقل وكيفية استخدامه من أخطر القضايا الفكرية التى ألحت على هدى شعراوى طـوال حيـاتها • فلم تكن المرأة ممنوعة من اسـتخدام عقلها فحسب ، بل كان الرجـل أيضـا يستخدمه الاستخدام الخطأ ، لأن كلا منهما لم يتـدرب على كيفية الاستفادة الايجابية المثمرة به فى حياته العملية • ولذلك تقول فى مذكراتها :

« لقد كان الاهتمام منصبا على تغذية الطفل ونموه الجسماني ، دون أدنى اهتمام أو التفات الى مشاعره ونمو مداركه . ولذلك كان هناك فارق هائل بين النمو الجسماني والنمو العقلى . أما الآن فان هناك توازنا بين الجانبين ، لذلك ينشأ الطفل قادرا على الفهم والاستيعاب في سن مبكرة .

وكان الأهل يخفون عن الأطفال كل الحوادث والأحداث المحيطة بهم . فاذا مات أحد أفراد الأسرة ، قيل للطفل انه قد سافر . واذا أراد أن يسأل عن حقيقة من حقائق الحياة ، أجابوه بخرافات لا تروى ظمأه لمعرفة الحقيقة ، أو قيل له انه ليس من الأدب أن يتدخل فيما لا يعنيه .

ولقد كنت واحدة من هؤلاء الاطفال ، وكان يعنى بنا خدم جهلاء يخفون عنا ما يجب أن نعرفه من حقائق . ويحيطوننا بسياج من الخرافات التى تؤثر على العقول الصغيرة الساذجة » .

لكن فى مواجهة هذا العنصر السلبى فى طفولة هدى شعراوى ، كان هناك عنصر ايجابى . فعلى الرغم من أن أباها محمد سلطان باشا توفى وهى لم تتعد

الخامسة من عمرها ، فان التقاليد التى أرساها داخل نطاق الأسرة ، تركت بصماتها واضحة على شخصية ابنته فكرا وسلوكا • فقد عرف عن أبيها أنه كان يميل الى مجالس الأدب والعلم • وقد تغنى كثير من الأدباء والشعراء بشخصيته المتميزة التى ارتبطت بالكرم والوفاء والاخلاص والترفع عن الصغائر ، والتمسك بشعائر الدين ، والشجاعة فى ابداء الرأى ، والتجرد من الغايات • كذلك كان بارا بأهله فى حياته وبعد مماته حيث أوقف عليهم جانبا كبيرا من ممتلكاته ، كما فعل نفس الشيء بالنسبة للفقراء ، حتى لايجد واحد من الذين كان يعولهم مشقة فى الحياة من بعده ، وقد أوقف على الحرمين الشريفين والأزهر الشريف والمساجد والمدارس جانبا من أوقافه •

هذا عن حياة أبيها الأسرية والخاصة ، أما حياته الاجتماعية العامة فكانت موجهة ضد كل ما يمس كرامة الانسان ويهدر كيانه • فمثلا كان وراء الغاء نظام السخرة والكرباج حيث قدم اقتراحا بذلك الى نوبار باشا رئيس الوزراء ، وانتهى الأمر بالغاء هذا النظام الذى كان يعتبر وصمة فى جبين مصر • كذلك

فقد قدم اقتراحا بالغاء جميع الضرائب الاضافية التي كانت ترهق كاهل الفلاحين ٠

وكان محمد سلطان باشا زاهدا في المناصب الحكومية لانشغاله برعاية أسرته واخوته ، لكن يبدو أن اهتمامه باصلاح أحوال أبناء وطنه ، دفعه الى قبولها حتى يكون مؤثرا على المستوى الرسمي والتنفيذى ولذلك عمل مديرا لمديرية بني سويف ، ثم مديرا للفيوم ، ثم مديرا لأسيوط ، ثم مديرا للغربية ، ثم مفتشا عاما للوجه القبلى ، ثم رئيسا لمجلس النواب ومجلس شورى القوانين ثم قائم مقام خديو ٠

أما أم هدى شعراوى فقد حظيت من ابنتها بحب عظيم ٠ وكانت أول صديقة لها أسرت لها فى صباها بأول بوادر عدم ارتياحها للتفرقة المفتعلة بين البنت والولد ، وكان صدر الأم رحيبا لا يعرف الصد أو النفور أو التأنيب بل كانت تلجأ دائما الى الاقناع السمح ٠ تقول عن أمها :

« كنت أحب هذه السيدة حبا عظيما ، وكانت تبادلنى الحب وتعطف على ٠ وكانت هى الوحيدة التى تجاذبنى الحديث بصراحة فى مختلف الأمور والشئون ٠

وقد لاحظت ما كنت أحاول أن أخفيه من آلام نفسية بسبب تفضيل أخي علي سواء من جانب والدتي أو أهل البيت جميعا ، فكانت تحاول أن تقنعني بأن هذا ليس تفضيلا ، ولكن لأن الولد هو الذى يحمل اسم الأسرة وهو الذى يحمل مسئوليتها » ٠

هكذا كانت هدى شعراوى منذ صباها الباكر تنظر الى الأمور في جوهرها البسيط بعيدا عن التراكمات التقليدية المتوارثة التى لم يتقبلها عقلها الذى أصر على عدم أخذ الأمور على عواهنها ٠ فلابد من وجود تبرير منطقي معقول لكل سلوك مهما كان راسخا عبر الأجيال ٠ والمنطق الجوهرى والطبيعي يؤكد أن الحياة منذ بدايتها نهضت على الرجل والمرأة بنفس القدر من المسئولية والأهمية بدليل أن الحياة الانسانية لا يمكن أن تستمر بأحدهما دون الآخر ، وعلى ذلك فان تفضيل الرجل على المرأة ليس سوى رواسب وتراكمات تقليدية افتعلتها عصور التخلف حتى لا يشعر الرجل بضآلته اذا ما أتيحت للمرأة فرصة التفوق عليه ٠ ولذلك كان عقل هدى شعراوى منذ تلك المرحلة المبكرة في حياتها دائم التساؤل عن السبب في هذا التفضيل وهذه التفرقة المفتعلة ٠ ولعلها لم تقتنع برأى أمها عندما أكدت لها

أن الولد هو حامل اسم الأسرة ومسئوليتها • ولعل أمها أيضا لم تكن لتقتنع بهذا الرأى لولا رضوخها للتقاليد التى تجبرها على الرضوخ له •

ولم يكن هذا يعنى أن هدى شعراوى لم تكن تحب أخاها أو كانت تشعر بالغيرة منه • بل على النقيض من ذلك تماما ، فانها لم تكن تتخيل حياتها بدونه ، وكانت تحبه حبا متناهيا على حد قولها فى مذكراتها ، لكن هذا الحب المتناهى لم يمنع عقلها من التساؤل ! أى أن جذور الموضوعية والنظرة الشاملة الى الجانب غير الشخصى للأمور ، كانت كامنة بالفطرة فى أعماق عقلها ووجدانها • فالجانب العاطفى ممثلا فى حبها لأخيها لم يعق تمسكها بالجانب العقلانى الذى يرفض التفرقة بين البشر الذين خلقوا فى الأصل متساوين • ان كيان أى انسان له حرمته وقداسته مهما كان نصيبه فى الحياة ضئيلا • ولا يملك أى انسان ــ مهما عظم قدره ــ الحرية فى أن يتعدى على حرية الآخرين • ومن هنا كان تقديس هدى شعراوى للحرية الشخصية ــ سواء للمرأة أو الرجل ــ طالما أنها لا تمس كيان الآخرين • ذلك أن الحرية كل لا يتجزأ ، ومن يظن فى نفسه حرية الاعتداء على حرية غيره هو فى الأصل غير حر ، بل عبد

لنزواته وشطحاته الاستبدادية . وقد برز هذا المفهوم أيضا فى المراحل المبكرة من صبا هدى شعراوى عندما قالت عن أمها :

« ان والدتى كانت خيرة ديمقراطية . ولذلك كان منزلها لا يكاد يخلو من الضيوف يوما واحدا . وكثيرا ما كانت تطول تلك الضيافة نظرا لما يجده الضيوف من حسن الوفاء وكرم المعاملة . وكثيرا ما وفد الزائرون فجأة ، فى الأوقات المناسـبة وغير المناسـبة . ولذلك كانت مائدتنـا مسـتعدة دائمـا لاستقبال الضيوف ، وكانت الغرفة معدة لاقامة النازلين . وكثيرا ما كنت أثور على هذا التطفل الذى يضطرنى الى ترك غرفتى لاحدى الضيفات أو قبولها شريكة لى فيها . وكنت دائما أفضل الحالة الأولى ، لأننى أتألم من بعض الروائح ومن عدم تجدد هواء غرفتى » .

هكذا كانت بذور الثورة كامنة فيها . ثورة لم تكن رومانسية انفعالية بل كانت عقلانية تضع الحدود بين المفاهيم التى تلاشت بينها مثل هذه الحدود . فهناك فارق بين كرم الضيافة واستغلال هذا الكرم مهما تخفى تحت أردية العواطف المثالية من حب وود ووصـال .

فالحرية الشخصية تأتى فى المقام الأول طالما أنه لا يوجد ما يستوجب التضحية بها من أجل هدف انسانى ملح •

كذلك لم تكن هدى شعراوى تستريح لمن يتجاهل كيانها ووجودها • كان هذا احساسها تجاه على شعراوى الذى تزوجها فيما بعد . وكان وصيا عليها فى طفولتها وصباها • تقول عنه :

« عندما كان يحضر على بك شعراوى الوصى علينا وناظر أوقاف والدى ، كانوا يأخذوننى أنا وأخى للسلام عليه ، وبعد ذلك كنت أتحاشى الذهاب الى السلاملك لأنه لم يكن يلتفت الى على الاطلاق ، وكان يوجه كل حديثه واهتمامه الى شقيقى الذى كان يحبه حبا جما ، وكان منزلنا يتخذ شكلا غير مألوف طوال مدة اقامته بسبب الخوف الذى كان يستولى على الخدم وعلى الأقارب والزائرين » •

لم يكن هذا الاحساس نتيجة نرجسيتها أو ذاتها المتضخمة ، بل كان نتيجة لحبها للأوضاع الطبيعية السلسة التى يجب أن تنهض عليها العلاقات الانسانية خاصة فى داخل نطاق الأسرة • ولذلك كانت تصر دائما على أن تتصرف بتلقائية لا تعرف الحساسيات

التقليدية • فمثلا كانت تمضى كل أوقات فراغها فى الحديقة ، وتفضل اللعب فيها بعد الغداء على النوم ، مما جعل شقيقها يقول لها بتهكم : أما تستحين من بقائك طول الوقت فى الحديقة ، وأنا مع كونى ولدا أمضى أكثر أوقاتى داخل المنزل ؟ فكانت ترد عليه بحسرة قائلة : غدا ستنعكس الآية ، وأنا التى سأبقى فى البيت وتكون أنت خارجه •

ولم تخل طفولتها من اللجوء الى حيل الأطفال وأفكارهم البريئة لعلها تتساوى مع أخيها فى نظر أسرتها ، حتى لو كان الدافع الى هذه المساواة مرضها • فكثيرا ما تمنت أن تمرض حتى تصبح مركز اهتمام الأسرة عامة وأمها خاصة • وبالفعل تصادف أن تفشت حمى الدنج وكانت هدى أول من أصيب بها فى المنزل • وكم فرحت وتأثرت من اهتمام أمها بمرضها ولهفتها عليها لأنها لم تتعود أن تراها مريضة ، وأمرت فى الحال باحضار طبيب العائلة علوى باشا • وبعد يومين أو ثلاثة ، أصيب أخوها بنفس المرض ، فقام أهل المنزل على قدم وساق ، ورأت بعينيها الأطباء وهم يدخلون غرفتهما قاصدين فراش أخيها ، ثم يقومون بفحصه ويغادرون الغرفة دون أن يلتفتوا اليها وكأنها

غير موجودة ، برغم أن فراشه كان بالقرب من فراشها . وأدى هذا الاهمال الى سوء حالتها النفسية ، واشتداد وطأة لحمى عليها ، لكن أحدا لم يهتم بأمرها الا بعد أن أشرفت على الخطر الذى يهدد حياتها .

وبالطبع ترسبت هذه التجربة فى عقلها الباطن ، وضاعفت من عزلتها وانكماشها . لكن قوتها الكامنة فى أعماقها أحالت هذه العزلة الى نوع مبكر من الاستقلال الذاتى ، ذلك أن كبرياءها منعها من أن تستجدى اهتمام الآخرين . هذا الاهتمام الذى اذا لم يأت من تلقاء ذاته فليذهب الى الجحيم . لذلك كانت تقضى معظم أوقات فراغها بعد الدرس فى حديقة البيت التى كانت أشبه بغابة صغيرة . وكانت تحب الحيوانات التى وجدت بينها ألفة محببة لم تجدها وسط أسرتها ، وكان يخيل اليها أن تلك الحيوانات الوديعة تفهمها وترثى لحالها . كما كانت ترى فى الأشجار مرتعا للألعاب الرياضية التى شغفت بها . وفى الصباح الباكر كانت تستيقظ على صوت الطيور وتغريدها .

تقول هدى شعراوى عن تجربتها مع الطبيعة :

« كانت الطبيعة بما فيها ، من جمال وجلال تأخذني فأسبح في جمالها الى ما لانهاية ، وأشعر بالسعادة والهناء لما ألقاه من عطف وما أسبح فيه من خيال » ٠

ويبدو أنها تلقت أعظم دروس حياتها على يدى الطبيعة وبين أحضانها ٠ فقد تعلمت أن الانسان هو المخلوق الوحيد في هذا الكون المغرم بالمظهر والتصنع والافتعال والتفنن في ابتكار التقاليد والقيود التي من شأنها أن تحد من انطلاقه وابداعه ، وقد تصيبه بالتحجر والشلل التام اذا ما تراكمت الرواسب مع مرور الزمن لتكتم أنفاسه ٠ ومما زاد من حيرتها أن معظم الناس فخور بهذه التقاليد والتراكمات والرواسب ، بل ان بعضهم يرفعها الى مرتبة المقدسات ليتعبد في محرابها ، متجاهلا أو ناسيا أنها من صنع يديه ، وأنها ضد دورة الزمن وتطور الحياة وتجددها ٠ أما الطبيعة فدائمة التجدد والخصوبة والحيوية في وجه كل زحف للعقم ، وحصار للجفاف والتحجر ٠

لم يتعلم الانسان هذا الدرس من الطبيعة لأن التقاليد والرواسب والتراكمات أقامت بينه وبينها حاجزا يرتفع ، وهوة تتسع بمرور الأيام والأجيال ،

بحيث انفصل عنها تماما وأصبح يعيش وسط حفريات من صنعه وصنع أجداده . وبالطبع كانت المرأة أولى ضحايا هذه الهوة التى سقطت فيها حتى قاعها برغم أن تكوينها يحـاكى الطبيعة فى تجـددها وخصوبتها وحيويتها . فقد صنع لها الرجل كهفا مظلما خانقـا لتقضى فيه عمرها كله ، وأدخل فى روعها أن الخروج من هذا الكهف لا يعنى سوى الخـروج عـلى كل القيم الدينية ، والتقاليد الاجتماعية ، والمثل العليا . وذلك على الرغم من أن هدى شـعراوى نفسـها وجدت فى أسرتها بعض النماذج النسائية المبكرة التى تسخر عمليا من كل القيـود الحديدية المفروضـة على حركة المرأة ولا نقول انطلاقها ، وذلك فى وقت لم يكن أحد يسمع بما سمى فى العالم كله بعد ذلك بحركة تحرير المرأة . فهذه جورية نموذج للمرأة التى تأتى بما قد لا يأتى به الشجعان من الرجال . تقول هدى شعراوى عنها :

« لم أجرؤ فى يوم من الأيام على سؤال والدتى عن أصلها أو سبب نزولها الى مصر . فقـد كانت رحمها الله زاهدة فى الكلام عن نفسها ، قليلة الشكوى والجهر بآلامها ، تتحكم فى عواطفها وتخفى فى قرارة نفسها كل ما يؤلمنـا . عـلى أننى كنت تواقة لمعرفة شىء عن

حياتها وأهلها . ولذلك سألت خالى يوسـف عن سبب
هجرة عائلته من القوقاز فى الأناضول ، وكيف وصلت
والدتى الى مصر الى أن تزوج أبى منها ، فقص على أنه
عنـدما شبت الحرب بين الجراكسـة وروسيا القيصرية
حوالى عام ١٨٦٠ ، دافع الجراكسة عن القـوقاز بكل
شجاعة وبسالة، وكان جدى لأمى أحد القوادالمشهورين،
وكان يدعى «شارالوقه جواتيش»، وكان هوالذى يقود
المعركة فى القرم . وأثناء الحرب هزمت فرقته ووقع
أسيرا . وكان له بين القواد المعروفين خصم هو القائد
الدغستانى الشهير « الشيخ شـامل » . فانتهز هـذا
القائد فرصة أسره للتشهير به . وأشاع أنه انضم الى
الروس وخان بلاده ، فقبضت السلطة المحلية على ولده
يوسف الذى كان دون السادسة عشرة من عمره ، وألقت
به رهينة فى الحبس توطئة للحكم عليه بالاعدام اذا لم
يعد أبوه . وعندئذ قررت جماعة من حزبه وأقارب
والده وأصـدقائه التطوع لتخليص والده وأصـدقائه
من أسر الروس انقاذا لابنه المسكين . فارتدوا ملابس
الجنود الروس واندسوا بينهم . وقد ساعدهم على ذلك
معرفتهم للغة الروسية ، وصحبتهم فى هـذه المغـامرة
ابنة أخيـه « حورية » ، وكانت مع جمالهـا ، باسلة

مغـامرة ، فلم تتردد فى الاندماج مع الـرجال الذين تطوعوا لخلاص عمها • وقد ساعدهم الحظ فوفقوا الى تحقيق خطتهم وتمكنوا من تخليصه ، ولـكن الروس فطنوا الى خلاصه فتعقبوهم وقاتلوهم فى الطريق ، ولما كانوا قليلى العدد والعدة ، فقد تغلب عليهم الروس ، ومات وجرح معظمهم • وكان بين الجرحى « جواتيش » الذى احتمى ببعض الصخور وظل يحارب المتعقبين من الروس فى انتظار نجدة من الجراكسة كانت «حورية» قد ذهبت لاحضارها • ومازال يحارب حتى أصـابته رصاصة أودت بحياته • وحمله منقذوه ميتا الى مسقط رأسه ليدفن هنـاك ، وليثبتوا كذب الشـائعات التى روجها خصمه الشيخ شامل وبذلك أنقذ ابنه من السجن والموت » •

ولعل التناقض واضح بين صـورة حورية البطلة الجميلة الشجاعة الباسلة المغامرة التى خاضت الأهوال وواجهت الموت دون أدنى تردد ، وبين أم هدى التى لم تكن تجرؤ على الجهر بآلامها وشـكواها مجـرد الجهر • وهو التناقض الذى جعل هدى تعجب بحورية التى بدت أمامها نموذجا فريدا يجب أن يحتذى ، فى حين رفضت فى أعماقها السير على نهج أمها برغم حبهـا الشـديد

لها • فلم يكن نصيبها من الحياة سوى التوارى فى الظل والعيش على الهامش ، أما هدى فيبدو أنها كانت قد قررت لنفسها فى تلك المرحلة المبكرة من حياتها أن تخوض غمار الحياة بكل عنفوانها وجبروتها ، وأن تثبت نظريا وعمليا أن هذا العالم قد خلقه الله عز وجل للرجل والمرأة معا ، وليس للرجل فقط •

ولذلك أدركت أن العلم والثقافة من أهم وأخطر الأسلحة التى تمكنها من خوض معركتها التى كانت كامنة فى عقلها الباطن فى تلك المرحلة المبكرة • وظهر عشقها للعلم والثقافة فى المتعة الكبرى التى كانت تجدها فى أوقات الدرس ، على النقيض من أقرانها الصغار المغرمين باللعب والتسلية • كانت تمضى كل صباح فى تلقى مختلف العلوم من المدرسين باللغات العربية والتركية والفرنسية • لكن الأمر لم يخل من متاعب كالعادة ، بل وصدمات ، لكن يبدو أن هذه الصدمات كانت تزيدها اصرارا وصلابة ، وبالتالى فان قوة الدفع داخلها كانت تتضاعف بالصدمات ايمانا بالمبدأ القائل بأن كل ما لا يقتلها يقويها • فقد بدت الحياة فى نظرها تحديا لابد أن تواجهه وأن تحقق ذاتها من خلالها ، أما الصورة الرومانسية التى يقدمها

الرجل للمرأة عن الحياة ، والتي يؤكد لها أنها ستكون نزهة حالمة في جنة وارفة الظلال، أي ظلاله هو بالطبع، فقد بدت في نظـر هدى وهما خادعا لا أساس له من الصحة • حتى المربى أو الخـادم كان قادرا على اعاقة مسيرتها بموافقة سادته ، ولم تكن تطلب سوى العلم ، وبين جدران بيتها • تقول في مذكراتها :

« كنت مغرمة جدا باللغة العربية • وكان يحضر الدرس معنا مربينا « سعيد أغا » الذى كان يلازمنا في كل مكان • وكان صاحب الأمر والنهى على الخدم وعلى معلمينا • وبهـذه المناسـبة أذكر انه لتعطشى للغـة العربية ، سألت أستاذى يوما عن السبب في عدم امكانى قراءة القرآن مثله دون خطأ ، فقال : لأنك لم تتعلمى قواعد النحو • ولما سألته ان كان في امكانى أن أقرأ مثله بلا لحن ولا خطأ بعـد تعلمى القواعد ، أجابنى بالايجاب • فرجوته أن يعلمنى القواعد ، ففرح وقال لى : بكل سرور • وفي اليـوم التـالى أتى يحمل تحت ابطه كتاب النحو • فسأله سعيد أغا بعظمة وكبرياء : ما هذا الكتاب ؟ قال : كتاب النحـو ، طلبته الآنسـة نور الهدى (وكان اسمها الأصلى) لتتعلم القـواعد •

فقهقه الأغا وقال له : خذ كتابك ، لا لزوم للنحو ، لأنها لن تكون محامية يوما من الأيام !

وقد أثرت هذه الصدمة الجديدة على نفسى تأثيرا شديدا • وبدا اليأس يتسرب الى قلبى ، ويتولانى الملل حتى أهملت دروسى، وصرت آكره أنوثتي لأنها حرمتنى متعة التعليم وممارسة الحياة الرياضيةالتى كنت أحبها، كما كانت تحول بعد ذلك بيني وبين الحرية التى كنت أعشقها » •

ومع ذلك قبلت التحدى ولم تستسلم • كانت تشترى من أمام باب البيت خلسة الكتب العربية من الباعة الجائلين ، برغم أن هذا السلوك كان محظورا عليها تماما • لكن كم كانت فرحتها بكل كتاب جديد تنهال عليه بالقراءة فى خلوتها ثم تخفيه فى دولاب صغير فى غرفة نومها • وبذلك اكتشفت صداقة الكتب بعد أن خبرت صداقة الطبيعة بكل ما فيها من أشجار وأزهار وأطيار وحيوانات •

لكن يبدو أنه مهما كانت الحياة زاخرة بالسلبيات ، فانها لا يمكن أن تخلو من بعض الايجابيات التى يمكن أن يقتنصها الحريص عليها والمتربص بها من أمثال هدى

شعراوى . فقد كانت تميل للشعر بفطرتها ، ولذلك كانت تشترى كل كتب الشعر التى تصل اليها يدها . وقد زادها ميلا للشعر فى طفولتهـا السيدة خديجـة المغربية الشاعرة التى كانت تتردد عليهم كثيرا، وتقضى عندهم أياما عديدة فى غرفة تخصص لها طوال اقامتها . ولم تبخل على هدى بقراءة أشعارها الجديدة مما ضاعف من تعلقها بالشعر لدرجة أنها طلبت منها أن تعلمهـا نظم الشعر ، فصارحتها بأنه يحتـاج الى الالمام بعلوم كثيرة منها النحو والصرف والعروض ، وهو ما كانت هدى تجهله بالطبع فى طفولتها . لكن الأهم من هـذا أن خديجة المغربية ضربت المثل الأعلى لهدى فى تلك المرحلة المبـكرة ، وهـو المثـل الذى أثر فى فكـرها وسلوكها فيما بعد . قالت عنها :

« لقد كنت معجبة بتلك السيدة اعجابا شـديدا لأنها كانت تحضر مجالس الرجال . وتتباحث معهم فى أمور أدبية واجتماعية بينما كنت أرى المرأة الجـاهلة ترتعد فرائصها خوفا ويتصبب جبينها عرقا اذا قضى الحال أن تحادث رجلا حتى ولو كان من وراء ستار . وقد أعطتنى بذلك فكرة أن المرأة الفاضلة تستطيع أن

تتساوى بالرجل ان لم تفقه . فازددت اعجابا بهـا ، وتمنيت أن أكون مثلها رغم دمامتها » .

ومع ادمانها عادة القراءة والاطلاع لم يعد يكفيها ما تشتريه من كتب بين الحين والآخر ، وأصبحت تطمع فى مطالعة كتب أبيها التى تركها فى خزانة لم تفتح منذ وفاته ، خاصة وأنهـا كانت تعلم أنه من عشـاق الأدب والشعر، وكأن دائما محاطا بالأدباء والشعراء . وكانت تتحين الفـرص لتتمكن من فتح مكتبه خلسـة بتجربة المفاتيح التى كانت تحت يدها . وكانت معها فتاتان فى سنها تربيتا معها ، عهدت اليهما بمراقبـة الدهليز فى الوقت الذى كانت تحاول فيـه فتح خزانة الكتب . وأخيرا فتحتها لتمد يدها المرتجفة لتأخذ منها كتابين ، كان أحدهما الجزء الثانى من «العقد الفريد»، والثانى « ديوان أبى النصر » أحد شعراء ذلك العصر . وفى مرة تالية حصلت عـلى قصـة جـورجى زيدان « المملوك الشارد » فكانت أول قصـة تطالعهـا ، وقد حببت اليها قراءة القصص التاريخية .

كذلك كانت تعشق الفن ، خاصة فن الموسيقى . فقد بدأت تعلم الفرنسية فى سن التاسعة بعد ما ختمت

القرآن ، وكانت معلمتها ايطالية الجنسية تحسن تعليم الموسيقى أكثر من تعليم الفرنسية ولذلك ظلت هدى كعادتها تتحين الفرصة حتى حصلت على بيانو خاص بها • لم تكن تفقد الأمل أبدا فى تحقيق ما تريد سواء هيأت بنفسها ظروف هذا التحقيق أو تربصت له فى انتظار حلوله • فمثلا أشار الطبيب الذى كان يعالج أخاها أن يشتروا له مهرا صغيرا « سيسى » لأن ركوب الخيل يقوى الجسم وينشط حركة الأمعاء ، وفى الوقت نفسه لا يتطلب مجهودا كبيرا • فطلبت هدى أيضا أن يشتروا لها مهرا • وبالطبع حاولوا اقناعها بأن ركوب الخيل لا يليق بالبنات، لكنها كعادتها لم تستسلم لهم بل ضربت لهم مثلا بجارتهم ابنة الضابط لمعى بك التى تركب الخيل وتقود عربتها الصغيرة بنفسها • ولما عجزت أمها عن اقناعها ، خيرتها بين المهر والبيانو لمعرفتها بميلها الشديد للموسيقى ، فاختارت هدى البيانو على أساس أنها لن تعدم الوسيلة لركوب حصان أخيها كلما أرادت •

فقد تعلمت فى صباها المبكر قيمة أن تحكم عقلها وتستشيره فى كل ما يعن لها ، وأن تجهر برأيها للتعبير عن كيانها وشخصيتها • فقد كان فى بيتها خادم حبشى كثير المزاح والضحك • وقد أوهمها يوما بأن العملات

الفضية والنحاسية تزرع وتؤتى ثمرها ، ففرحت بالفكرة وصار يأخذ منها قروشا ليدفنها أمامها فى الأرض ، وأوصاها بألا تخبر أحدا بمكانها حتى لا تسرق • وكلما سألته عن عدم ظهور شجر القروش ، أجابها بأنها تستغرق وقتا طويلا • ولما أعياها الانتظار قصت القصة على البستانى ، فقهقه طويلا وأخبرها بحقيقة الأكذوبة التى عاشتها • فكان ذلك درسا لها فى عدم التسليم بما يقال لها دون تحكيم عقلها أو الاسترشاد بمن حولها فيما لا تعرفه ، على أن يكونوا موضع الثقة الجديرين بها •

أما قيمةالجهر برأيها للتعبير عن كيانها وشخصيتها، فقد كانت محرومة منها فى طفولتها وصباها ، ولذلك عندما كبرت ونضجت تمسكت بها ولم تتخل عنها أبدا• فمثلا كانت تنتظر الأعياد والمواسم بفارغ الصبر وتستعد لها قبل حلولها بمدة طويلة • ولكن كثيرا ما كانت الثياب الجديدة تنغص عليها سرورها ، وتعكر صفوها ، وتسلبها بهجة العيد وفرحته اذا ما حيكت على خلاف ما كانت تود • وكان يزيدها حزنا وآلما آنها لا تستطيع آن تجهر بذلك ، فقد كان عليها دائما أن تستسلم صاغرة شاكرة دون ابداء آية ملاحظة أو

اعتراض . وقد خرجت من هذا بالدرس التالى وذلك كعادتها دائما فى استيعاب التجارب وبلورتها من خلال منهجها الفكرى المتسق الرحب ، تقول :

« كلما فكرت أنه كان من السهل تحاشى ما ينغص على من جراء ذلك أو غيره من الأسباب ، وددت لو أن العادات وقتئذ كانت تسمح للصغار بابداء ما يجول بأنفسهم فى شىء من الصراحة . فالصراحة هى أساس حسن التفاهم بين الناس . وقد حرمتنى تلك العادات والتقاليد القديمة من التمتع بمزاياها وفوائدها ، بحجة أنه لا يليق بالصغير أن يعارض أو يبدى رأيا ، وانما يجب عليه أن يأخذ كل ما يقال قضية مسلما بها، وأن يتقبل كل ما يعرض عليه دون مناقشة أو معارضة » .

فاذا كان هذا الحجر على الرأى مفروضا على كل الصغار ، فما بالك بوضع البنات فى مثل هذا الموقف ؟! ولم يكن الارهاب موجها من الرجال الى الصغار فحسب، بل كان أيضا من النساء عندما تحين لهن فرصة التحكم فى الصغار على سبيل الانتقام مما لاقينه من كبت فى طفولتهن وصباهن . ذلك أن الظلم الأسرى والاجتماعى

حلقة جهنمية مفرغة ، متى دارت لا نعرف بداياتها من نهاياتها ، بل ولا نعرف من الظالم ومن المظلوم ۰ اذ آن المظلـــوم سرعان ما يتحـــول الى ظالم اذا ما آتيحت له الفرصـــة ۰ فالظلم بكل أنواعه المتعددة لا يلد ســوى الظلم ۰ وهو ما تجســد فى ســلوك وصيفة آم هدى فطنات التى كانت تكره هــدى كرها شــديدا ، وكانت تتمادى فى الاساءة الى من فى البيت ، وفى مقدمتهم فتاتان مصريتان تربيتا مع هدى ۰ وقد ظلت فطنات على هذا الحال الى آن هربت احداهما من المنزل ولجأت الى دار الحرية للفتيات ، ورفضت العودة الى البيت برغم حبهـا الشــديد لهدى التى بقيت مع الفتــاة الأخرى لتتقاسما اللعنات التى كانت تصبها عليهما ۰ وفضلا عن ذلك فقد كان على هدى آن تواجه محــاولة فطنات بذر الشقاق بينها وبين أخيها ۰ فقد كانت هدى تنصحه بالمواظبة على دروسه والاجتهاد فى طلب العلم ، بينما كانت فطنات توحى اليه بأنه غنى ومثله ليس فى حاجة الى التعليم ۰ ومازالت وراءه تحضــــه عــلى التراخى والتكاسل حتى اتسعت بينه وبينها فجوة التنافر ، بل وأرادت أن تستغل هذا الخلاف لتقصيه عنها ، لكنهــا فشلت فى آن تؤثر على عواطفها الأخوية الصادقة نحوه لادراكها حقيقة ما ترمى اليه فطنات ۰

لكن فى مواجهة هذا الجانب السلبى المحبط ، كان هناك الوجه الايجابى المشرق • فلم يكن كل العـاملين فى بيت هدى شعراوى من طراز فطنـات ، بل كانوا مخلصين فى أداء واجباتهم ، شاعرين بالمسئولية الملقاة على عاتقهم ، محترمين مخدوميهم ، محافظين على ما بين أيديهم من الأشـياء ، محبين لصـغار مخدوميهم الذين ولدوا بين أيديهم ، كل واحد منهم يقـوم بعمله خير قيام ، ويشاركون الأسرة فى السراء والضراء ، ولا تمتد أيديهم الى شىء مهما كانت قيمته ، ولا يطمعون الا فى رضاء أولياء أمورهم • وكان أفراد الأسرة يبادلونهم هذا الحب ، ويقدرون لهم هذا الاخلاص •

من هذا الجانب الايجابى فى العلاقات الانسـانية تعلمت هدى أن العمل هـو قيمة فى حد ذاته بصرف النظر عن نوعيته وعمن يقوم به • فقد كان العاملون فى البيت من الجوارى والمماليك لكن هذا لم يقلل من قدرهم فى نظر أفراد الأسرة • بل كانت المربيات ـ على وجه الخصوص ـ مصدرا متجددا للمعـرفة والخيـال بالنسبة لهدى الصغيرة • تقول هدى شعراوى عن تلك الليالى :

« كنا نقضى معظم السهرات جالسات على «الشلت»

حول فانوس كبير ، لان الكهرباء لم تكن قد انتشرت بمصر بعد • وكانت مربياتنا يقصصن علينا كيف أسرن ، وكيف كانت بلادهن وعادات أهلها ، حتى يغلبنا النعاس ، فنأوى الى فراشنا • وكانت تلك السهرات تطول وتكتسب كثيرا من الأهمية والبهجة عندما كانت تحضر لزياراتنا سيدة كانت تستخرج ماء الزهر ونسميها « الست الزهارة » • كانت طويلة القامة ، ضخمة الجسم ، مستديرة الوجه ، عليها سيماء الهيبة والوقار • ترتدى دائما الملابس البيضاء وعلى رأسها طرحة بيضاء • وكنا نحبها كثيرا وننتظر زيارتها بشوق ولهفة لنسمع منها القصص المسلية • ولشدة حبنا لها كنا نخفى ازارها لنضطرها للبقاء عندنا مدة طويلة • وكنا نترقب المساء لنتصدر المجلس وتقص علينا بصوتها الجهورى حكاياتها الممتعة ، فنجلس حولها ، وكلنا عيون شاخصة وآذان صاغية • وكانت تخرج من قصة الى أخرى اذعانا لارادتنا والحاحنا • وكانت الغرفة فى مثل تلك الليالى تكتظ بجميع أهل المنزل الذين يجيئون تباعا ويجلسون حتى تتسع الدائرة وتبلغ باب الغرفة • وما كان النعاس فى تلك السهرات يتسرب الى أجفاننا حتى نرغم على القيام للنوم ، فكنا نتوسد الفراش ونتخيل ما كانت تقصه

علينا ، ونسبح فى عالم الخيال ، وأظن أنه كان لهـذه السيدة الفضل الأكبر فى اتساع دائرة خيالنا » ٠

ولا شك أن الخيال لعب دورا حيويا فى حياة كل الرواد فى مختلف المجالات ٠ فالخيال هو منبع الابتكار والتجـديد والاختراع والابـداع واسـتشراف آفاق المستقبل وملامحه بناء على معطيات الحاضر الواقع بكل سلبياته وايجابياته ٠ وكما قال آينشتاين فان المعرفة هى تحصيل حاصل أما الخيال فهو تحصيل لما لم يحصل بعد ٠ وكان هذا واضحا فى عنصر المبادرة الذى ميز معظم أفكار وسلوكيات هدى شعراوى فيما بعد ٠ لم تكن تنتظر أو تتمنى وقـوع الأحـداث وانمـا كانت تسعى لاحداثها بناء على استراتيجية متكاملة فى ذهنها، ترسم لها ــ ولو بالتقريب ــ الملامح التى يمـكن أن يكون عليها المستقبل القريب على أقل تقدير ٠

كذلك منحها الخيال القدرة على التصور السريع ، واستيعاب أبعاد أى موقف بسرعة حتى لو كان طارئا ، وفهم الدوافع المحركة للأشخاص الذين تتعامل معهم ، واختراق المظهر بحثا عن الجوهر ، وتبنى موقف أصيل خاص بفكرها وايمانها حتى لو تعارض مع كل مواقف

المحيطين بها . كانت البصيرة عندها أهم من البصر الذى لا يرى أبعد من حدود اللحظة الراهنة . فالبصيرة تخترق ضباب المستقبل المتكاثف بحيث تتلاشى أمامها المخاوف التقليدية ، وبذلك تتيح فرصة اتخاذ القرار الجرىء والسليم. فمثلا لم تخش هدى شعراوى محاذير الاختلاط المبكر بين الأولاد والبنات برغم كل المخاوف التقليدية التى تثير الذعر من مجرد احتمال وقوع هذه الظاهرة . تقول بمنتهى البساطة والثقة :

« من كثرة اختلاطى بالصبيان ولعبى معهم ، تطبعت بطباعهم وشببت عليها . وهنا أقرر أن اختلاط الجنسين منذ الصغر ان لم يكن له تأثير حسن فى تربية الأطفال ، فليس من ورائه الضرر الذى يحدث من الاختلاط فى أدوار المراهقة وما بعدها ، لأن اختلاط الأطفال يجعلهم يشبون على عدم الفوارق وتربطهم الصداقة البريئة ، ومن كثرة تعود بعضهم على بعض يصبحون كأنهم اخوة .

وأؤكد أن كثيرا من الفتيات اللاتى تآخين منذ الصغر مع زملائهن من الفتيان كن أقل علما بكثير من

الأمور التى عرفتها أترابهن ممن تعارفن فى سن كبيرة ، فما من شك فى أن الفوارق والنزعات فى هذه الأعمار تكون ظاهرة ومحسوسة . أما الاختلاط منذ الصغر وبين اولاد من طبقة متساوية تربوا على أساس من الحشمة والاحترام ، فهو قليل الشوائب والأخطاء » .

أى أن هدى شعراوى لم تكن متطرفة فيما نادت به ، بل كانت تضع فى اعتبارها دائما تقاليد المجتمع الشرقى المتحفظ . وهذه سمة من سمات الرائد الذى يربط بين فلسفته النظرية وواقعه الذى يسعى الى تطويره وتجديده ، بحيث لا تصبح النظرية فى واد والتطبيق فى واد آخر ، وبالتالى تفقد القدرة على التأثير والتغيير . ولذلك لم تطالب هدى شعراوى بالاختلاط على اطلاقه بل جعلته قاصرا على مرحلة ما قبل المراهقة وفى حدود الطبقة الاجتماعية الواحدة . لكن لا يعنى هذا أنها كانت تسعى الى تكريس الفوارق الطبقية بين الصبيان والبنات ، بل كانت تؤمن أن كل طبقة لها تقاليدها وأعرافها وسلوكياتها وأخلاقياتها مما يقلل من عوامل التصادم وسوء الفهم والحساسية والحرج وعقد النقص أو التعالى بين أبنائها فى هذه السن المبكرة . وقد استفادت هدى

شعراوى شخصيا من هذه التجربة فى طفولتها وصباها بحيث اكتسبت القوة والشجاعة والقدرة على التعامل مع الناس بلا حرج أو حساسيات ، ومع الجنس الآخر دون مخاوف أو هواجس ٠

فالعبرة ليست بمنع الاختلاط ولكن بحسن التربية ، والفتاة الساذجة ، الجاهلة ، الضعيفة المترددة تكون عرضة للوقوع فى الخطأ ، خاصة وأن الطريق الى الجحيم ممهد بالنوايا الطيبة ٠

وقد تبدو عبارة « أن كثيرا من الفتيات اللاتى تآخين منذ الصغر مع زملائهن من الفتيان كن أقل علما بكثير من الأمور التى عرفتها أترابهن ممن تعارفن فى سن كبيرة » عبارة غامضة بعض الشىء ، لكن يبدو أن هدى شعراوى وجدت حرجا فى أن تفصح عن حقيقة العلاقات الخفية غير الطبيعية التى يمكن أن تنشأ بين الفتيات اللاتى لا يجدن حرجا فى مصارحة بعضهن بعضا بالدوافع الجنسية التى تعتمل داخلهن ولا يخجلن من التنفيس عنها بطريقة أو بأخرى طالما أن المجتمع لا يلتفت الى ما يدور بينهن ، أما الاختلاط المبكر بين الصبيان والبنات فيوجد نوعا من الخجل والحشمة

والاحترام ، خاصة وأن عيون المجتمع متفتحة دائما على مثل هذه التجمعات الواضحة الصريحة ، ولذلك تقــل فيها الأخطاء والأخطار عن التجمعات التى تقتصر على الجنس الواحد ٠

وكانت تجربة الاختلاط المبــكر قد منحت هــدى الصغيرة القدرة على الجسم مع زوجهــا على شــعراوى برغم أنه كان وصيا عليها وناظرا لأوقاف أبيهــا ، وبرغم فارق السن الشاسع بينهما اذ كان له أبناء أكبر منها سنا ، وبرغم أن تزويجها له تم دون أخذ رأيهــا بل ويمــكن القــول بأنه تم دون أن تدرى من أمرها شيئا ٠ فقد تمت كل مقدمات الزواج واجراءاته دون علمها ، ولم تعرف حقيقة الأمر كله الا عندما سمعت من يقول لها : ان ابن عمتك على بك شــعراوى يريد الزواج منك ، فمن توكلين منا ؟! ولم تجد ردا ســوى البكاء المرير ، ثم رضخت عندما قالوا لها ان رفضها سوف يغضب روح أبيها ، وسوف يقضى على أمها التى تتلوى على سرير المرض وتبكى ٠ فقد كانت تنــاهز الثــالثة عشرة من عمرها وكان التيــار أقوى من أن تقاومه ٠

لكن سرعان ما عادت اليها قوتها بعد الزواج ٠ أصبحت تميل الى زوجها بحكم قرابته لها ، ولما كان يظهره من عطف عليها ، جعلها تأنس وتطمئن اليه شيئا فشيئا ٠ خاصة وأن تفكيرها العملي والواقعي والموضوعي كان يؤكد لها باستمرار ضرورة التأقلم مع الأوضاع القهرية المفروضة عليها الى أن تحين فرصة تطويرها أو تغييرها اذا أمكن ، أما طلب المستحيل فمن شيمة المجانين فقط ٠

ومع ذلك لم تسر الأمور على ما يرام برغم تأقلمها معها ٠ فقد لاحظت بعد عدة أشهر أن هناك شيئا غامضا قد استولى عليه ، فتغيرت معاملته لها دون أن تدرى سببا لهذا التغيير ٠ فاذا أرادت زيارة صديقة أو قريبة ، منعها من الخروج ، واذا زارتها صديقة أو قريبة استجوبها بأسئلة كثيرة وملحة عما جرى بينهما من أحاديث ، كأنما كان يخشى أن يكون قد وصل الى علمها شيء لا يريد أن تعلمه ٠ وكانت تلجأ الى التسلية بالعزف على البيانو ، لكنه سرعان ما يأمرها بالكف عن العزف لوجود ضيوف معه ٠

هكذا شعرت أنه يقيد حريتها ويضيق الخناق عليها مما شحن حياتها بالألم والمرارة والسأم والكآبة ،

وأصبحت تبكى كثيرا بسبب أو لغير سبب • ومع ذلك كانت صلابتها الداخليــة المبــكرة تبرز كلمــا حانت الفرصــة ومعهــا قدرتهــا عــلى تحقيق ذاتها واثبات كفاءتها • ففى قلب هذه الظروف السلبية ، وقع حدث سياسى خارجى أخرجها من دوامة حياتها الخاصة • كان ذلك عام ١٨٩٥ عنــدما نشبت الحــــرب بين تركيــا واليونان ، وانحازت مصر الى الأتراك بحكم تبعيتهــا للامبراطورية العثمانية • وتشكلت لجنــة من الرجال لمساعدة الأتراك برئاسة رياض باشــا وتولت زوجتــه رئاسة لجنة الســيدات ، وطلبت من على شــعراوى أن تكون زوجته عضوا فيها برغم صغر سنها ، فوافق على الفور وكأنه كان يريد أن يملأ الفراغ الذى تعانى منه ليس لأسباب سياسية عامة ، وانما لأسباب شخصية لم تهتم هدى بتفسيرها ، اذ كان كل همها أن تثبت ذاتها من خلال أول عمل اجتماعى سياسى عام تشعر فيه أنها تؤدى واجبها نحو وطنها خارج حــدود دائرة حياتهــا الضيقة بل والخانقة • وكعادتها اســتوعبت الدروس المستفادة من التجربة للتسلح بها فى خضم الحياة فيما بعد • تقول :

« وجدت فى هــذا العمل أكبر تســلية وعزاء •

وصرت أنظر الى نفسى بعين الاعتبار والتقدير بعد أن خضت عباب المجتمع ، وتمكنت من دراسة أخلاق الناس عن كثب . والمقارنة بين شعورهم وآرائهم ، وعرفت كم يعانى الانسان فى سبيل التعاون على الخير ، وكم يريق ماء وجهه فى السعى اليه مدفوعا بشعور الواجب والانسانية .

وكان الدرس الثانى الذى تعلمته هو أنه بعد أن انتهت الحرب بانتصار تركيا ، أراد الباب العالى أن يعبر عن عرفانه لمصر بالجميل ، فأرسل النياشين وآيات الشكر الى رئيس الحكومة الذى خلف رياض باشا ، وبذلك نال التقدير من لم يناصروا تركيا أو يأخذوا بيدها . وهكذا تعطى الحياة غالبا من لا يستحق وكفى المجاهد أنه أرضى ضميره .

وهكذا خرجت من هذه التجربة وقد استفدت فى مدة قصيرة أضعاف ما كان يمكن أن أكسبه من خبرة فى سنين طويلة . كما تعلمت منها الصبر وسعة الصدر . وكان على بعد أن انتهت المعركة أن أعود الى دائرة حياتى الضيقة من جديد » .

لكنها بعودتها الى هذه الدائرة مرة أخرى اكتشفت السر فى تصرفات زوجها الغريبة عندما كان يمنعها

من الخروج لزيارة صديقة أو قريبة ، واذا زارتهـــا احداهن استجوبها بأسئلة ملحة عن الأحاديث التى جرت بينهما ، كأنما كان يخشى أن يكون قد وصـل الى علمها شىء يريد أن يخفيه عنها ، كما أنه رحب على الفور بانضمامها الى لجنة السيدات لمناصرة تركيا وهو سلوك لا يتمشى مع حرصه على تقييد حريتها . زال كل هذا الغموض عنـدما سمعت هدى أمهـا يوما وهى تناقش زوجها فى غضب وبصوت عال ثم نادتها وسألتها عن الوثيقة التى أعطاها لها زوجها غداة يوم زواجهما فى مظـروف لم تعبأ بمعرفة ما بداخله فوضـعته فى دولابه . أسرعت هدى وأحضرت المظروف فاذ بأمهـا تسعد به وتأخذه لتحتفظ به .

عندئذ بدأت أول نقطة تحول حاسـمة فى حيـاة هدى شعراوى . كانت أمها قد اشترطت على زوجها على شعراوى أن تكون هدى زوجتـه الوحيـدة ، وقد تم زواجها منه بعد أن نفذ التزامه ، ولكن عندما اكتشفت أمها أنه عاد الى حياته الأولى مع أم بناته ، وتأكدت من ذلك بحدوث الحمل قررت انفصالها عنه ولم يكن قد مضى على زواجها أكثر من خمسة عشر شـهرا . وقد حاول زوجها اعادة المياه الى مجاريها لكن أمها وقفت

سدا منيعا ضد كل محاولاته لاخلاله بالعهد الذى قطعه على نفسه ، وظلت هــدى منفصلة عنه ســبع ســنوات استطاعت فيها أن ترسى كل قواعدها العلمية والفكرية والثقافية ٠

عادت الى دروس اللغة العربيــة واللغة الفرنسية والموسيقى ، ولم تكتف بجهود مدرسيها معها ، فحرصت على تثقيف نفسها تثقيفا ذاتيا واعيا ٠ وكم ســعدت بصحبة البيانو حتى ســاعة متــأخرة من الليــل وهى تعزف بعض المقطوعات الكلاسيكية العالمية ، بل انهــا اشتركت مع صديقتها عديلة هانم الشبراوى فى تأجير مقصورة بدار الأوبرا للمواظبة على مشاهدة عروضها الموسيقية التى عشقتها ٠

فى تلك الفترة لم تنقطع الوســـاطة بين هــدى وزوجها لرأب الصدع الذى وقع بالانفصال ٠ وكثيرا ما كان يأتى زوجها بنفسه ويســتخدم كافة الوســائل ما بين الرجاء والعطف تارة وما بين الوعيــد والعنف تارة أخــرى ٠ لكنهــا كانت قد اكتسبت من الثقــافة والنضج والخبرة والصلابة والعقلانية ما جعلها تتمالك مشاعرها ، وتحاول اقناعه بالمنطق ، بل تحــاول أن تذكره بواجباته نحو أولاده وأمهم التى هى زوجتــه

أيضا . فقد كانت تملك من الحجة الهادئة والوعى العميق ما جعلها تصارحه بأن الدافع الى هذا السعى انما هو وخز الضمير لاحساسه أنه أساء اليها وأخل بتعهده لها ، لكنها فى واقع الأمر لم تشعر بأية اساءة موجهة اليها لأن واجبه نحو أولاده يقتضى أن يعيش بينهم ، برغم ادعائه بأن حبه لها هو دافعه الوحيد للالحاح عليها بالعودة اليه .

ومن الواضح أن هدى شعراوى ، بعد أن ذاقت متعة الحرية الشخصية بعيدا عن قضبان الحياة الزوجية التقليدية الخانقة ، آرادت أن تواجه الحياة بنفسها كى تثبت للآخرين عمليا أن الحياة لم تخلق للرجل فحسب بل للمرأة أيضا . لكن الضغوط التى مارسها زوجها عليها أقلقت حياتها واجتاحتها بالانفعالات الممضة حتى انهارت صحتها وأعصابها فلزمت الفراش عدة أشهر . وعندما أشار عليها الطبيب بالسفر الى الاسكندرية لتغيير الهواء والاستفادة بحمامات البحر ، حاول زوجها أن يستغل الموقف بمنعها من السفر حتى تقبل الصلح معه . وذلك بأن امتنع عن صرف المبلغ الذى طلبته لسفرها ، لكن أمها سارعت بتأجير منزل لها على حسابها الخاص قضت فيه الصيف مع خالتها .

وفى الاسكندرية مع نسمات البحر والحرية تدعم احساسها بالاستقلال الذاتى والقدرة على مواجهة المجتمع بنفسها • فقد قررت أن تشترى لوازمها بنفسها من المحال الكبيرة برغم امتعاض أهل المنزل بل وذهولهم من هذه الخطوة التى وجدوا فيها منتهى الجرأة والنزق والطيش ، وكأنها جريمة لايمكن أن تغتفر • لكنها بعد جهد واقناع لأمها حصلت على أذنها ، وتصف هذى التجربة بنفسها فتقول :

«كان على أن أصحب وصيفاتى وسعيد آغا لأنه لا يليق بى أن أتوجه بمفردى • وكان على أن أسدل ازارى على حاجبى وان ألتف بحيث لا يظهر من شعرى أو ملابسى أى شيء • وعندما دخلنا المحل ، دهش الموظفون والمشترون من هذه المظاهر غير المألوفة ، وبخاصة عندما رأوا الأغا يحملق بنظراته الحادة فى وجوه الناس وكأنه يحذرهم من النظر الينا • ثم اندفع نحو أحد مديرى الأقسام يسأله فى لهفة وحدة : ألا يوجد عندكم محل للحريم ؟ فأشار له الى قسم ملابس السيدات • ونادوا على الفتيات البائعات ليتولين خدمتى بعد أن وضعن حاجزين يحولان بينى وبين الموجودين ، وازاء ذلك لم تتمالك أصغر الفتيات من

أن تسأل الأغا من أى بلد ومن أى عائلة نحن ، فحملق فيها غاضبا ، وشــكا للمدير وقاحتها ٠ وكاد صاحب المتجر يطرد تلك البائعة ، لولا أننى رجوته آلا يفعل ٠ وكنت أنا فى غاية الخجل من هذه التصرفات ٠

ورغم مرارة التجربة الأولى فقد تكررت زياراتى للمحال التجارية بعد ذلك واستطعت أن أقنع والدتى بالفائدة المادية التى تعود علينا من شراء مستلزماتنا بأنفسنا ، وكيف يتسنى لنــا اختيار أحسن الأشــياء ، وكيف نســتغنى عن الدلالات والبائعات المتجــولات ، ونتقى شرورهن ومساوئهن ٠ ومازلت بها حتى قبلت التوجه معى مرة ، فتأكدت من صدق قولى ، وتعودت بعد ذلك التوجه الى المحلات التجارية لقضاء لوازمهــا بنفسها» ٠

وقد يبدو موضوع مثل هذا ساذجا بالنسبة لأجيال الشباب الآن ولا يحمل فى طياته أى نوع من الريادة الحقيقية ٠ لكن مجرد هذه النظرة لا يعنى سوى ريادة هدى شعراوى التى مهدت الطريق للأجيــال التالية ، وجعلتها تنظر الى خروج المرأة الى المجتمع فى أشكاله وصــوره المتعددة على أنه بدهية لا تحتــاج لكل هــذا الضجيج أو الاستعراض ٠ فهو ليس مجرد شراء لوازم

من محل ما ، وانمـــا تحطيم لأسوار السجن الخـــانق ، وامتلاك المرأة لحقها فى الحـــركة والاختيار ، واثبات لكيانها ، وتأكيد لوجـــودها الذى طالما قهرته عصـــور الظلمات المملوكية والتركية ٠

★★★

هكذا نبعت ريادة هدى شـــعراوى من مصدرين : أحدهما نظرى يعتمد على القراءة ، وتلقى الدروس ، والتثقيف الذاتى ، ومتابعة الحـــركة الأدبية والفنية بقدر ما تتاح الفرصة ، والمصدر الآخر عملى يتمثل فى استيعاب الدلالات والمعانى الكامنة خلف المواقف والمآزق ونقاط التحول التى مرت بها فى تلك المرحلة المبكرة فى حياتها ٠ لم تقتصر نظرتها على المظاهر السلوكية للشخصيات التى تعاملت معها فى نطاق أسرتها على وجه التحديد ، بل كثيرا ما كانت تخترقها ببصيرتها النافذة لتضع يدها على الدوافع الكامنة داخلها والمحركة لها ٠ وبذلك استطاعت أن تأخذ من عقلها نورا هاديا ، ومن فكرها منهجا متسقا لرؤية الحياة بأسلوب غير تقليدى ، لا يخضع لما تأتى به الرياح ٠

كان عليهـــا أن تنظـــر الى المواقف والشـــخصيات والأشياء من زوايا جديدة وفى ضوء عقلانى موضوعى ،

معتمدة على ما تعلمتـــه فى ألكتب وما اســتوعبته من الحياة ، ولذلك اعتمدت ريادتها التاريخية فى المجالات الاجتماعية والسياسية والفكرية على شقين : النظرية والتطبيق • فلم تكن تنادى بنظريات وأفكار فحسب ، بل كانت تملك من ملكات التنظيم ومـواهب الادارة وامكانات التطبيق ما مكنها من تحويل نظرياتها وأفكارها الى مؤسسات ومعــاهد ومدارس ومستشفيات ولجــان ومؤتمـرات ، واتحــادات محلية ودولية ، وجمعيات تتبع برامج محددة ، ومخططات تنهض على استراتيجية شاملة سواء فى مجال المرأة بصفة خاصـة أو المجتمع بصفة عامة ، بحيث يمكننا القول بأن مصر ما قبل هدى شعراوى تختلف تماما عن مصر ما بعد هدى شعراوى لقد غيرت هذه الرائدة الجليلة وجه الحياة فى مصر بعد أن أزالت عن عينيهــا غشــاوة الظلمــات المملوكية والتركية ، بحيث احتلت مكانتها فى تاريخ مصر المعاصر بصفتها احدى شموس عصر التنوير •

النظرية والتطبيق

من الواضح أن هدى شعراوى من المفكرين الذين يؤمنون بأن النظرية والتطبيق وجهان لعملة واحدة ، وأن أى انفصال بينهما قد يؤدى الى تشـويه النظرية أو انحراف التطبيق أو كليهما معا • فالنظرية لا تنطلق من فراغ وانما تنبع من الواقع الذى تحـاول تقنينه حتى تتبلور ملامحه واتجاهاته فيسهل التعامل معه بل والتحكم فى مسيرته كى يتفادى الدخـول فى متاهات جانبية أو طـرق مسدودة أو دوائر مفـرغة ، تعوق تطوره وتقدمه • وفى الوقت نفسه لا تعتبر النظرية نصا مقدسا بحيث يفرض قسرا على الواقع دون مراعاة للمعوقات التى قد تنشأ نتيجة للتطبيق المتعسف ، مما قد يجعل النتائج عكس المتوقع تماما • ذلك أن هنـاك

علاقة جدلية متبادلة بين النظرية والتطبيق بحيث لا ينقاد أحدهما للآخر انقيادا أعمى ، بل يطور كل منهما نفسه طبقا لعلاقات التأثير والتأثر المتبادلة بصفة مستمرة ·

فاذا كان المفكر يملك القدرة الادارية والفنية على تطبيق أفكاره فيجب ألا يتقاعس عن ذلك ، وألا يترك هذه المهمة للآخرين ، فربما أساءوا فهمه وشوهوا أفكاره سواء بحسن نية أو سوء طوية ، أو ربما قاوموه بطريقة خبيثة ملتوية ، فينحرفون بأفكاره الى نقيض المراد منها تماما · بل يتحتم على المفكر ذى الامكانات التطبيقية أن يطبق آراء المفكرين الذين سبقوه ، والذى يعتبر نفسه امتدادا وتطويرا لهم ، اذا كانوا قد اقتصروا على المناداة بأفكارهم الجديدة · ولعل هذا ما فعلته هدى شعراوى بالنسبة لقاسم أمين وغيره من رواد تحرير المرأة · فمثلا نجد أن قاسم أمين لم يسع الى تطبيق اتجاهاته الثورية التى وردت فى كتابيه الشهيرين «تحرير المرأة» و «المرأةالجديدة» لعدم امتلاكه لامكانات التطبيق فحسب ، بل ان هذا المفكر الرقيق الحساس الزاخر بكل المشاعر الانسانية الجياشة ، قوبل بصنوف من الاضطهاد والقهر حاولت أن تعزله تماما

عن التأثير في مجريات الأمـور في مجتمعه ، بدءا من تحريم دخـوله الى قصر الخـديوى ، الى النقد والتهجم والتجريح والسباب والاتهامات التى انهالت عليه من أغلب قطاعات الفكر ودوائر الثقافة ومعظم الكتاب، الى سعي فئات وأفراد من العامة والغوغاء والجهلاء والبلهاء والمتعصبين الى ازعاج حياته الأسرية الهادئة ، ظنـا منهم أن دعوته الى تحرير المرأة تبيح لهم اقتحام منزله ومخالطة زوجته ، بناء على تفسيرهم الجـاهل الوضيع لكتابيه «تحرير المرأة» و «المرأة الجديدة» · صحيح أنه دافع عن رأيه باصرار ، وتصدى لأعتى الموجات وأعنف الأعاصير التى سببتها دعوته الى تحرير المرأة ، الا أنه لم يسع الى اقامة المؤسسات الكفيلة بتطبيق أفكاره ·

كانت هدى شعراوى واعية تماما بدور قاسم أمين الريادى في تمهيد الأرض لدعوتها هى حتى تثمر في مناخ أكثر ملاءمة ، ولذلك تبنت هى بدورها دعوته على المستوى التنفيذى · تقول في مذكراتها عنه وعن كتابه «تحرير المرأة» :

«في ذلك الوقت ظهر كتـاب قاسم أمين «تحـرير المرأة» الذى نبه الأذهان الى وجوب خلق نهضة من خلال

تثقيف المرأة وتحريرها . وكان كتابه الجرىء بمثابة الحجر الأول فى بناء أســاس تلك النهضة التى قابلها الرأى العام بعاصفة شديدة من الاستنكار والمقاومة . ولو أن تلك العواصف قد أثرت فى قاسم وهزته ، الا أنها لم تستطع أن تنال من رسالة الحق التى أداها فى جرأة وشجاعة . وكم سمعنا فى ذلك الوقت السيدات أنفسهن يستنكرن تصريحات قاسم أمين ومبادئه رغم أنها كانت فى صالحهن ، لأنها كانت تظهرهن فى الثوب الحقيقى من عدم الكفاءة ، وكان ذلك يجرح كبرياءهن، فكن بذلك يذكرنني بالجوارى عندما تعطى لهن ورقة العتــق من الرق ، اذ كن يبكين عــلى حيــاة العبودية والأسر» .

وترى هدى شعراوى أن ايمان قاسم أمين بقضية تحرير المرأة لم يأت من فراغ ، بل وجد النموذج الحى الذى دفعــه الى تكريس حياته لهــذه القضية . فمن الغريب أنه بدأ حياته الفكرية وهو يقف فى صفوف أعداء المرأة فى كتابه الذى ألفه بالفرنســية بعنــوان « المصريون » ردا على كتاب الدوق داركور الذى أهان فيه مصر والمصريين . لكن قاسم أمين عندما تردد على صالون الأميرة نازلى فاضل الذى جمع العلماء والأدباء

والمفكرين والمثقفين من أمثال سعد زغلول وأحمد لطفى السيد ، واستمع الى حديثها فى مجالات العلوم والآداب، لم يلبث أن انتقل من صفوف الأعداء ليقف فى طليعة الصفوف نصيرا لقضية تحرير المرأة ٠

وعلى المستوى التنفيذى كانت هدى شعراوى تؤمن بأن التذكير المستمر بانجازات الرواد من شأنه أن يجعلها جزءا من تراث الأمة ٠ وبصفتها رئيسا لجمعية الاتحاد النسائى انتهزت فرصة مرور عشرين عاما على رحيل قاسم أمين فى مايو ١٩٢٨ وأقامت احتفالا لتكريم ذكراه فى دار مسرح حديقة الأزبكية ، ضم عديدا من الشخصيات العامة والقيادات النسائية ٠ وكان مهرجانا لرد اعتبار الرائد العظيم الذى قضى نحبه حزينا محسورا بعد أن تكاثرت عليه السهام الجاهلة المسمومة من كل جانب ٠ وألقت هدى شعراوى كلمة فى الاحتفال قالت فيها ان شخصية قاسم أمين كانت شخصية بارزة عظيمة تزاحمت فيها صفات جمة، صفات القانونى الحكيم ، والمصلح الخطير ، والأديب القدير ، الوطنى الغيور ٠ وكانت حلية تلك الصفات شجاعته واقدامه ٠ فلم يدفعه الى تحرير المرأة من الجهل والتخلف والضياع مجرد احترامه للعدل والانصاف

فحسب ، بل حبــه الحقيقى والعملى لمصر وتفانيــه فى الرقى بها الى مستوى حضارة العصر • ثم تؤكد هدى شــعراوى على أن رســالتها امتــداد لريادة قاسم أمين فتقول :

« هذه الغاية هى غايتنا نفسها التى ننشدها نحن معشر السيدات من وراء نهضتنا النسائية • ولو أمهله الموت ، وقدره قومه ، وأنصفه خصــومه حينما شرع يطالب بتحرير المرأة ليتمم سـلسلة اصلاحه ، لخطت مصر خطوات واسعة من عشرين سنة مضت » •

وهى المهمة التى قامت بها هدى شعراوى بعــده لتؤكد أن رسالتها ليست ظاهرة طارئة بلا جذور ضاربة فى أعماق الفــكر الحضــارى المصرى الذى طالما كبته القهر العثمــانى ، بل هى امتــداد طبيعى لانجــازات الرواد ، وبالتالى لابد أن يكون لها هى نفسها امتداد مع توالى الأجيــال وتطــور المجتمع • ولذلك حرصت هدى شعراوى على تربية الأجيال التى يمكن أن تحمــل عنها الشعلة بعد رحيلها ، والتى لمعت فيها أسماء مثل نعيمة الأيوبى ، وتفيدة عبد الرحمن ، وأمينة السعيد، وســهير القلمــاوى ، وهيلين ســيداروس وعائشـــة

عبد الرحمن ، وانجى أفلاطون ، وفاطمة اليوسف وغيرهن •

كذلك كانت هدى شعراوى تصر على تذكير جيلها بانجازات باحثة البادية (ملك حفنى ناصف) وأفضالها عليه • فهى تحكى فى مذكراتها كيف تلقت نبأ وفاتها صباح ٢١ أكتوبر ١٩١٨ ، وكيف هبط عليها كالصاعقة لرحيل هذه الرائدة الجليلة فى ريعان شبابها ، وكيف خيل اليها فى تلك اللحظة أنها تسمع صوت باحثة البادية وهو يدوى فى قاعة المؤتمر الذى عقد عام ١٩١٠ مطالبا بحق النساء فى الحياة الانسانية الكريمة ، وكيف تجسم فى خيالها منظرها المبهر فى محاضراتها بالجامعة المصرية وهى تلقى على بنات جيلها دروسا فى الأخلاق والحقوق والواجبات ، وكيف سارت فى وداعها الأخير حتى أغلقوا القبر على تلك الشعلة المتقدة من الذكاء والفكر الانسانى الراجح • وتصف هدى شعراوى كيف أثرت باحثة البادية فى فكرها وكفاحها فتقول :

« عدت الى منزلى واختليت بأحزانى ، شعرت أن الأموات أكثر تمسكا بحقوقهم منا ، فقد ألقوا على عواتقنا تراثا مقدسا يطالبوننا باحترامه واستغلاله

فى كل فرصة • لذلك لما رأينا نحن النساء أن الرجال قد سبقونا لتكريم ذكرى فقيدتنا • • • • • • قمنا بدورنا باقامة حفل تأبين لها بالجامعة المصرية الأولى • وأرادت السيدات أن تكون تحت رياستى ، فاعتليت المنبر لأول مرة فى حياتى • وبعد ذلك كنت أبحث عنها فى الأيام العصيبة التى اجتزناها ابان الثورة وبعدها ، وكنت أناديها فى نفسى ، فكان لا يتردد صوتها الا فى ضميرى » •

ولم تحد هدى شعراوى عن منهج التذكير والتأكيد، واستغلال تراث الرواد فى كل فرصة طوال حياتها الحافلة بالانجازات الفكرية والمادية • ففى الاحتفال بتكريم أولى خريجات الجامعة وأول طيارة مصرية (لطفية النادى) فى فبراير ١٩٣٢ ، تحدثت هدى شعراوى لتوضح أن الشعارات والمبادىء والقيم التى نادت بها قد تحولت الى ثمار مادية ملموسة سوف تجنيها الأمة فى مسيرتها نحو التقدم •

قالت :

« باسم جمعية الاتحاد النسائى المصرى ، أرحب بحضراتكم وأتقدم اليكم بخالص الشكر لتنازلكم بتلبية

دعوتنا ومشاطرتنا أفراحنا فى هذا اليوم الذى نعتبره من أسعد أيام الاتحاد وأبركها • فقد أتيح لجمعيتنا فيه أن تفتح موسم حفلات هذا العام بتكريم سرب من فضليات بناتنا ، حققن بنبوغهن آمالنا ، برزن زرافات فى ميادين العلم والعمل ، فعززن نهضتنا ورفعن رءوسنا بين نساء العالم المتمدن • فأضفن بذلك قوة الى قوتنا فى جهادنا للحق والحرية » •

وعندما قام الدكتور سامى كمال بتقديم الدفعة الأولى من خريجات الطب وهى الآنسة هيلين سيداروس ، والسيدة توحيدة عبد الرحمن ، والآنسة كوكب حفنى ناصف ، كان لابد أن يقول :

« ومن ذكر الآنسة كوكب حفنى ناصف فقد ذكر معنى من معانى مصر الحديثة • فلا يجهل أحد فضل حفنى ناصف على اللغة والآداب ، وفضل باحثة البادية ملك التى ترفرف روحها على هذا البناء فى هذه الساعة ، وسترفرف بجناحيها على هذا الوادى كلما فكرت المرأة فى النهوض والرقى » •

ومنذ البداية انتهجت هدى شعراوى نهجا تنفيذيا ، ماديا ، تطبيقيا ، ملموسا فى مجال التوعية الفكرية والحضارية والانسانية والاجتماعية والسياسية ، وذلك

من خلال انشاء المؤسسات التى تحيل الدعوة الى كيانات قادرة على دحض دعاوى المكابرين والخصوم • فقد بدأت نشاطها عام ١٩٠٧ وذلك بدعوة النساء للتبرع لانشاء جمعية لرعاية الطفل ، وبالفعل تم جمع التبرعات الكفيلة باقامة هذا المشروع الانسانى الرائد، لكن يبدو أن الحكومة شعرت بالخطر من خطوات هدى شعراوى التنفيذية ، ومن تحولها الى مركز قوة يمكن أن يستقطب القوى النسائية ومعها الرجال المتحمسون لقضيتها ، فأسرعت الحكومة الى وأد المشروع فى مهده • وأغلب الظن أنه لو اقتصرت دعوة هدى شعراوى على الندوات والمحاضرات والمقالات لماوقفت الحكومة فى طريقها ، ذلك أن المستمعين يستريحون الى الكلام المنمق والمنطق البليغ ، وقد يخرجون من الندوة مثلا وهم مؤمنون تماما بما قيل ، لأن الأمر يتوقف تماما عند هذه الحدود ، أما مجال التنفيذ فيحتاج الى قدرات فذة لا يملكها سوى قلائل من أمثال هدى شعراوى •

لكن اليأس لم يكن يعرف طريقه الى قلبها وارادتها ففى العام التالى مباشرة (١٩٠٨) أرادت هدى شعراوى أن تفتح آذان نساء مصر وعيونهن على تيارات الفكر الحديث التى تصطخب بها أوروبا منذ أواخر القرن

التاسع عشر ، وذلك باحداث ثغرة فى الجدار السميك الذى فصل مصر عن حضارة العصر طوال قرون الظلام المملوكى والعثمانى ، فقامت بدعوة الكاتبة الفرنسية مرجريت كليمان لالقاء سلسلة محاضرات ثقافية على السيدات فى احدى قاعات الجامعة التى ولدت حديثا . وكان الاقبال على المحاضرات منقطع النظير ، وتحولت الى مناقشات جادة وعميقة لم تكن لتخطر ببال المرأة المصرية فى ذلك الوقت . وكان الأمير أحمد فؤاد مديرا للجامعة ، وعندما لمس نجاح هدى شعراوى ، أمر بتخصيص قاعة للسيدات كل يوم جمعة لممارسة نشاطهن الثقافى والفكرى فيها .

بزغ نجم هدى شعراوى كرائدة صاحبة فكر ومنهج وتخطيط ، وأصبحت محط أنظار كل المتحمسات للخدمة فى المجال الاجتماعى . ففى عام ١٩١٠ أرادت الأميرة عين الحياة انشاء مبرة محمد على من خلال التعاون المثمر بين أميرات الأسرة المالكة وسيدات الطبقة الارستقراطية ، بهدف علاج الأطفال الذين أصيبوا بمرض الكوليرا المنتشر فى ذلك العام . ولم تجد الأميرة عين الحياة سوى هدى شعراوى لتضع المناهج والخطط . وانتهزت هدى شعراوى كعادتها الموقف

لتضرب عصفورين بحجر واحد اذ كانت تؤمن بأن التعليم لا ينفصل عن الصحة ، فرحبت بدعوة الأميرة لها بشرط انشاء مدرسة للبنات أيضا • وبالفعل تم تأسيس المدرسة التى فتحت أبوابها للرعيل الأول من المتعلمات •

وكانت هدى شعراوى تملك من الشجاعة مايجعلها ترفض رأيا أو مشروعا لا يساير فكرها ونهجها ، حتى لو كان هذا الرأى أو المشروع لأميرة • فقد سبق للأميرة عين الحياة ، بمساعدة بعض السيدات الأجنبيات أن رعت انشاء « مستوصف الليدى كرومر » ، وكانت قد دعت هدى شعراوى للمشاركة فى حفل الافتتاح لكن هدى لم تلب الدعوة ايمانا منها بأن المصريين قادرون على القيام بكل مشروعات بلدهم ، وأن الاعتماد على الأجانب من شأنه تعميق شعور المصريين بالنقص والتخلف • وعندما التقت بالأميرة بعد أيام وشرحت لها حجتها فى رفض دعوتها ، وجدت لديها حماسا دافقا لانشاء جمعية مصرية لحما ودما • من هنا كانت مبرة محمد على التى بدأ مشروعها كجمعية خيرية لتعليم الفتيات الحياكة ومستوصف لرعاية الأطفال صحيا ، ومركزا لتوعية الأمهات صحيا وأسريا •

ونظرا لأن الأسرة المالكة والطبقة الارستقراطية كانتا تمثلان الاستنارة الفكرية الفعلية ، فقد اعتمدت عليهما هدى شعراوى فى امداد مشروعاتها بالعون الاقتصادى ، خاصة وأنها كانت تنتمي الى هذه الطبقة ٠ أما الطبقة الكادحة فكان المرض والجهل والفقر قد طحنها طوال العصور المملوكية والتركية ، فلم يتبق لها سوى انتظار من يأخذ بيدها ٠ وكانت هدى شعراوى تعتقد أن دور الطبقة المستنيرة فى الرعاية الاجتماعية والمعونة الاقتصادية ليس تفضلا منها على الطبقة المطحونة ، وانما واجب قومي مفروض عليها حتى تستقيم حال الأمة ٠ ذلك أن الفجوة بين الطبقتين لابد أن تتسع وتتعمق اذا ما تركت على ما هى عليه ، وبالتالى تتعثر مسيرة الأمة كلها اذا ما بلغت حافتها ، أو ربما سقطت فيها ٠ ولذلك أسست هدى شعراوى فى مايو ١٩١٤ « جمعية الرقى الأدبى للسيدات المصريات » و « جمعية المرأة الجديدة » بمعاونة الأميرة عين الحياة والأميرة أمينة حليم ٠ وكان هدف الجمعيتين تنمية القدرات العقلية والمواهب الفنية والكفاءات الرياضية للفتيات والسيدات من خلال استغلال وقت فراغهن فيما ينفع أسرهن ومجتمعهن ٠ ولذلك غطت

المحاضرات كل مجالات الفنون والعلوم والآداب ، كما أقامتا الحفلات الموسيقية لأشهر العازفين ، وأشرفتا على تدريب السيدات على الشئون الصحية والادارة المنزلية، خاصة فيما يتصل برعاية الطفل ، وذلك بالاضافة الى أعمال البر والاحسان التقليدية ٠

ومن الواضح أن هدى شعراوى كانت متأثرة الى حد بعيد بالفكر التقدمى من خلال ثقافتها الفرنسية ، ومن اختلاطها بالمثقفات والكاتبات الفرنسيات بصفة خاصة والأجنبيات بصفة عامة فى مصر ، ثم من خلال المؤتمرات النسائية الدولية المتتابعة التى حضرتها رئيسا لوفد المرأة المصرية اليها ٠ وكانت تؤمن بأن عملية التثقيف الذاتى الدائب من أهم وأخطر المهام الملقاة على عاتق المثقف الحقيقى ، فعليه دائما أن يطلع على أحدث ما أنتجه الفكر الانسانى، وأن يتابع مجريات الأمور سواء فى وطنه أو فى العالم الخارجى ، ويستوعبها حتى يربط بين أسبابها ونتائجها ٠ وكان مقياس الفكر الانسانى الحقيقى عند هدى شعراوى هو ذلك الفكر الذى يسعى الى تطوير حياة الانسان الى الأفضل ، بصرف النظر عن جنسه أو دينه أو لونه أو طبقته ٠ أما الفكر الذى يحاول تبرير قهر الانسان

لأخيه الانسان ، ففكر فاسد عفن ، مهما كانت الحجج التى يتذرع بها ، والشعارات التى يرفعها ·

من هذا المنطلق الاستراتيجى الشامل كان دفاع هدى شعراوى عن المرأة · فهى فى نظرها انســان له كل حقــوق الانســان قبل أن تكــون مجــرد جنس له مواصفات معينــة · ولذلك فان تحــرير المرأة يبــدأ بتحرير الرجل نفســه من كل الرواسب والتراكمــات والتقاليد المتحجرة التى أفسدت نظرته الى المرأة · فهو ضحية مثلهــا تماما ، لكن لأن رجــولته لا تســمح له بالظهور أمام المجتمع كضحية ، فانه يعوض هذا النقص بارتداء جلد الأسد · ولو كان حرا بمعنى الكلمة لمــا رضى لرفيقة حياته بالاستعباد ، ذلك أن الحر يحارب من أجل حرية الآخرين كما يحارب من أجــل حريتــه لايمانه بأن الحرية لا تتجزأ · كانت كل خطوات هدى شعراوى التنفيذية صادرة عن هــذا المفهوم التقــدمى الشامل ·

ولعل من أهم الأســباب التى منحتها القدرة عــلى هذه الخطوات التنفيذية ، انها كانت ابنة للطبقة الثرية الأرستقراطية ، وقادرة على تنفيذ ما تنادى به اعتمادا

على ثروتها الضخمة ، لدرجة أنها أرسلت العديد من المبعوثين والمبعوثات الى الخارج للحصول على أعلى الدرجات العلمية في العلوم والآداب على نفقتها الخاصة . وقامت بذلك بدور رعاة العلم والفن الذين يحدثنا عنهم تاريخ الأمم المتحضرة في عصور مختلفة ، وسبقت بذلك أيضا الدور الذى قامت به الهيئات الحكومية والمؤسسات الضخمة مثل (مؤسسة فورد ومؤسسة فولبرايت) في مجال المنح والبعثات الدراسية في العصر الحديث . ولو كانت هدى شعراوى منحازة للمرأة فحسب ، كما يظن البعض ، لكانت منحها الدراسية قد اقتصرت على المبعوثات فقط . لكن لأن انحيازها كان لتقدم الانسان المصرى والارتقاء بمستواه الحضارى فانها لم تفرق بين امرأة ورجل كما يفعل بعض الرجال .

ونظرا لهذا المفهوم الاستراتيجي الشامل ، فان أعدادا كبيرة من النساء انضمت الى جمعيتى « الرقى الأدبى » و « المرأة الجديدة » ، ايمانا منهن بأن هدى شعراوى قد فتحت لهن عصرا جديدا من الكرامة والكبرياء والرقى . لكن لسوء الحظ كان عام انشاء الجمعيتين (١٩١٤) هو عام اندلاع الحرب العالمية الأولى ، مما أدى الى شلل كل الأنشطة الاجتماعية

والثقافية ، وفى مقدمتها الأنشــطة النســائية بطبيعة الحال • فقد وجدت مصر نفسها طرفا فى حرب لا ناقة لها فيها ولا جمل ، اذ أن الحماية البريطانية جرفتهــا الى دوامة الحرب التى أصابتها بالشلل باستثناء استغلال طاقاتها وتجنيد شــبابها فى خــدمة المجهــود الحــربى البريطانى • ولذلك اقتصر نشاط هدى شعراوى حتى انتهاء الحرب فى عام ١٩١٨ على اللقاءات والاجتماعات الشخصية التى تناقش فيها الحــاضرات مســائل المرأة وشئون الوطن بصفة شخصية بحتة •

وظلت هدى شــعراوى تتحين الفرص للعــودة الى نشاطها الدءوب بمجرد انتهاء الحرب ، وجاءتها فرصة العمر والتاريخ بقيام ثورة ١٩١٩ ، اذ شــعرت بأنه آن الأوان للمرأة المصرية أن تثبت وجودها على المستوى التنفيــذى والتطبيقى برغم خضــوع مصر للأحــكام العسكرية • تقول فى مذكراتها :

« وقد بقينا بعد ذلك نتتبع أخبار الوفد ونؤازره ، ونزكى نار الغيرة فى قلوب الرجال والنساء ، ونواسى أهل المصــابين برصــاص الانجليز ، ونزور الجــرحى والقتلى ، فحصلنا على أســماء كثيرة جدا • ومن هــذه

الأسماء ، نذكر : السيدة شفيقة بنت محمد• والسيدة عائشة بنت عمر • والسيدة فهيمة رياض • والسيدة حميدة بنت خليل • والسيدة نجية السيد اسماعيل ، هذا بخلاف كثير من النساء اللاتى أصبن بجراح من رصاص الانجليز داخل بيوتهن وخارجها •

وان أنسى لا أنسى الأثر المحزن الذى أحدثه ضرب أول شهيدة مصرية ، وهى السيدة شفيقة بنت محمد فى نفوس الشعب عامة • وقد تجلى ذلك فى تشييع جنازتها التى اشتركت فيها كل طبقات الأمة ، حتى صارت جنازتها مظهرا من مظاهر الوطنية المشتعلة •

كانت هدى شعراوى تؤمن بأن المرأة يمكن أن تشارك فى كل شىء • حتى فى الثورة والاستشهاد • ولكى تثبت هذه الحقيقة عمليا انتهزت فرصة اندلاع الثورة وأنشأت « لجنة الوفد المركزية للسيدات » بالتعاون مع زوجات زعماء الوفد ، وبذلك خاضت المرأة المصرية غمار السياسة لأول مرة فى العصر الحديث بصفة رسمية ، بعد أن كان نشاطها قاصرا على النواحى الاجتماعية والثقافية والتربوية كما وجدنا من قبل فى جمعيتى « الرقى الأدبى للسيدات المصريات » و « المرأة الجديدة » وتمثل نشاط « لجنة الوفد المركزية

للسيدات » في اعلان رأى المرأة فيالأحداث الجارية على الملأ ، واصدار البيانات ، وارســال الاحتجاجات ، والمشاركة في توجيه الرأى العام بالتوعية والارشاد ، واعلاء شأن الوحدة الوطنية خاصة بين المسلمين والأقباط ، خاصة بعد أن وقف بعض الأجانب الذين عاشوا في مصر الى جانب قوات الاحتلال • وكانت بداية هذه المواقف عندما قام شخص أرمنى فى حى عابدين باطلاق الرصاص من مسدسه بلا مبرر على مظاهرة سلمية كانت تمر أمام منزله ، فأثار بذلك حنق المتظاهرين وغيظهم ، فهجموا على بيته وحرقوا أثاثه • وقد حاول الأرمن استخدام هذا الحادث لاظهار المصريين بمظهر المتعصبين ، وأن ثورة ١٩١٩ ذات دوافع دينية وليست لأسباب سياسية ، كذلك تبرأ بعض اليهود من علاقتهم بالمصريين ، والتحق كثير منهم بخدمة الجيش البريطاني • لكن موقف الأقباط المصريين كان كفيلا بدحض كل هذه المزاعم، فقد تجلت أروع صورالوحدة الوطنية في العمل الوطنى الواحد الذى يجمع بين كل المصرين من مسلمين وأقباط •

سجلت هدى شعراوى فى مذكراتها هذا المظهر الرائع للوحدة الوطنية ، حين اتصهر جوهر هذا الشعب

الأصيل فى بوتقة الثورة وتحول الى طوفان هادر فى وجه قوات الاحتلال • ولعل المظاهرة النسائيةالتاريخية التى نظمتها هدى شعراوى من خلال « لجنة الوفد المركزية للسيدات » كانت نقطة تحول فى النظرة التقليدية تجاه المرأة المصرية سواء على المستوى المحلى أو الدولى • فمثلا يذكر أحمد طه فى كتابه « المرأة : كفاحها وعملها » أن الكاتب الانجليزى جورج يانج قد أشاد بالدور العملى الجرىءالذى لعبته المرأة المصرية فى ثورة ١٩١٩ التى وصفها بالعصيان ضد الامبراطورية البريطانية ، كما اعترف أن هذا الدور قد بدت بوادره مع البدايات الأولى المبكرة للوعى القومى ، وأنه كان أوضح وأبرز من مساهمة النساء فى الحركات الوطنية فى البلاد المجاورة • وما قاله جورج يانج يؤكد ما قالته هدى شعراوى فى مذكراتها خاصة فيما يتصل بالمظاهرة النسائية في ثورة ١٩١٩ :

« كم تعدى علينا هؤلاء الجنود فى المظاهرات • وأذكر على سبيل المثال أننا لما خرجنا فى موكب المظاهرة العامة التى ضمت جميع الهيئات المصرية واشتركت فيها السيدات راكبات سياراتهن • وكانت المرحومة ألفت هانم راتب تمسك بيدها علما مصريا صغيرا

يرفرف من نافذة سيارتها • وعند مرور المظاهرة أمام فندق الكونتيننتال ، انقض أحد الجنود الانجليز على سيارتها ، وحاول انتزاع العلم من يدها ، ولكنها تشبثت به ولم تمكنه من انتزاعه • ولما كان ذلك على مشهد من المتفرجين الأجانب ، فقد صفقوا اعجابا بها • فثار الجندى ثورة حمقاء • وأخذ يجذب العلم منها بقسوة ويضربها بيده الأخرى على ذراعها ضربات قاسية ليرغمها على التسليم • ورغم ذلك لم يتمكن من قهرها • وعندما صار أضحوكة المتفرجين ، أقبل بعض زملائه وأخذوا يطعنون سيارتها • وأسفرت المعركة بين جنود بريطانيا المسلحين وبين سيدة مصرية عزلاء عن احتفاظها بعلم بلادها الا طرف منه استطاعوا تمزيقه • وبعد انتهاء المظاهرة وعودتنا الى بيوتنا ، جاءتنى فى حالة انفعال شديد ، وطلبت منى الاحتجاج على هذا الحادث ، فكتبت فى الحال احتجاجا وسلمته لها لتذهب به بنفسها الى دار المعتمد البريطانى ، وتريه كيف اعتدى جنوده عليها وعلى سيارتها • ورد اللورد اللنبى على المذكرة بما تعود عليه الانجليز من التنصل من المسئولية ، قائلا : « نأسف لما أصاب السيدة فى الطريق العام » !

وتوضح هدى شعراوى أن الثورة لم تكن قاصرة على نساء الطبقة الارستقراطية ، بل احتوت كل الطبقات التى انصهرت فى بوتقتها مما يدل على حدة الوعى الوطنى والقومى عند المرأة المصرية بصفة عامة برغم حرمانها من التعليم والثقافة • فقد اشترك بعضهن فى سياراتهن وعرباتهن ، وبعضهن الآخر على عربات الكارو ، وبأيدى الكثيرات منهن الأعلام ، وفى أفواههن الهتاف بحياة مصر وفى قلوبهن الجرأة الكافية للتضحية بحياتهن من أجلها •

ولم تكن الوطنية بالنسبة للمرأة المصرية مجرد حماسة جوفاء خالية من أى مضمون فكرى ، بل كانت نظرة متسقة شاملة تعرف كيف تكسب الصديق ، وتحاول ايقاف العدو عند حده • فقد حدث أثناء سير أورطة انجليزية أن طفلا مصريا مر بين صفوف جنودها ، فاغتاظ الانجليز لذلك وضربوه ضربا مبرحا • وكان ذلك على مرأى من أحد الموسيقيين الايطاليين ، فانفعل لقسوة المنظر وانتهرهم قائلا : « أليست فى قلوبكم رحمة » فضربه ضابط بمؤخرة البندقية على رأسه ، فهوى ميتا • ولما علمت هدى شعراوى بما حدث لهذا الرجل الذى دفعه شعوره

الانسانى لحماية طفل برىء ، أرادت اظهار مشاعر نساء مصر نحو هذا الشهيد ، فأرسلت باقة كبيرة من الزهور لتوضع على قبره باسم نساء مصر . وذهبت على رأس وفد الى السفارة الايطالية للتعزية فيه حيث شكرهن السفير ، ورجاهن فى الوقت نفسه ألا يكثرن من المظاهرات خوفا من تفاقم المشاكل مع الامبراطورية البريطانية .

وكلام السفير الايطالى يدل على أن مقاومة المرأة المصرية للاحتلال كانت من العنف والجرأة بحيث يمكن أن تؤدى الى مشاكل مباشرة مع الامبراطورية البريطانية ، لكن المرأة المصرية أصرت على أن تؤجج نيران الثورة بصلابة لم نعهدها الا فى البلاد التى كانت المرأة فيها تتمتع بالسلطان والسطوة . فاتسع نطاق الاضراب حتى عم كل الفئات والطوائف والمجالات مما اضطر سلطات الاحتلال الى الضغط على الحكومة لتهدد الموظفين بالفصل وغير ذلك من أنواع العقاب الرادع اذا لم يكفوا عن اضرابهم . وحاولت حكومة رشدى باشا أن تنصحهم بالعودة الى أعمالهم تجنبا لبطش السلطة لكن دون جدوى . وانتهزت هدى شعراوى ،

ومعها زوجات زعماء الوفد ، الفرصة لدفع المد الثورى الى أبعد آفاقه كما تقول فى مذكراتها :

« وقمنا نحن السيدات نؤيد هـــذا الاضراب ، ونشجع الموظفين عــلى عدم العــودة الى أعمالهم حتى تصل البلاد الى نتيجة • وكتبت لجنة الوفد للسيدات الى رشدى باشا خطابا تطلب منــه الاستقالة اذا كان عاجزا عن تسيير دفة الأمور •

وقد علمت أنه كان عازما على تقديم استقالته ، فلما وصله الخطاب ، قال : « النســاء أيضــا يطلبن استقالتى • وهأنذا سأقدمها • فلتطمئن نفوسهن » • وقدم اســتقالته فى نفس الليلة • ولو أنه كان قــد قدمها بعد الانذار ، لكان ذلك أفضل لأنها كانت تعبر فى ذلك الوقت عن الاحتجاج ، ولو أن الاضراب انتهى قبل الانذار كما نصح هو ، لكان أجدى •

وبعد استقالته ، خشينا أن يتغير الموقف ، فأوعزنا الى كثير من الســيدات بالوقوف على أبواب الدواوين لمنع الموظفين المتخاذلين من الدخول الى مكاتبهم • ولشد ما كانت دهشتنا عنــدما علمنــا أن الموظفين ذهبــوا زرافات ووحدانا الى دواوينهم ، كبارهم قبل صغارهم،

وان كان عدد كبير من صغار الموظفين قد أصروا على موقفهم ، وظلوا مضربين حتى فصلوا من وظائفهم ·

وكانت السيدات اللاتى تولين الوقوف أمام الدواوين لمنع الموظفين من الدخول، ينتزعن أساورهن وحليهن ، ويقدمنها لهم قائلات : « اذا كان أحدكم فى احتياج لمرتبه ، فليأخذ هذه الحلى، ولا تسودوا وجوهنا بالرجوع الى أعمالكم بعد صدور الانذار البريطانى» · وللأسف فان هذا الأسلوب لم يؤثر فى بعضهم ، فدخلوا الى مكاتبهم وقدموا اعتذارات مختلفة يبررون بها غيابهم ·

وقد رأيت هذا بعينى ، فتألمت ألما شديدا رغم أنى ألتمس لهم بعض العذر اذ صمدوا مدة طويلة ، وليس لهم سند فى الحياة الا مرتباتهم · ولكن هذا لم يوقف الثورة ولا الاضراب ، بل زادهما انتشارا» ·

ويدل هذا على نظرة هدى شعراوى الموضوعية العقلانية للأمور · فالطبيعة البشرية لها حدودها التى لابد أن تعجز عن تجاوزها ، والمثالية الثورية لا تعنى الاندفاع الى مالا نهاية · فلابد للثورى الذى يريد أن يكون فعالا ومؤثرا أن يضع كل الظروف والضرورات

بل والحتميات فى أعتباره حتى لا تطيش ضرباته • من هذه الحتميات ، على سبيل المثال ، قدرة الثائرين على التحمل والتصدى، والمدى الذى لا يمكن أن يتجاوزوه أما تحميل الناس ما لا طاقة لهم به ، فمن شأنه أن يصيب الثورة ذاتها بنكسة قد تقضى عليها تماما • ومن هنا كان التماس هدى شعراوى العذر للموظفين العائدين الى أعمالهم بعد صمود طويل لم يستطيعوا مواصلته • ومع ذلك فقد واصل بعضهم الاضراب حتى فصلوا من وظائفهم •

واذا كان الاضراب يعنى مقاطعة العدو واصابته بالشلل ، فان هدى شعراوى كانت تؤمن بأن هذه المقاطعة لا تعنى قطع كل خطوط الاتصال به ، بل يفضل الاحتفاظ ببعضها اذا كانت تؤدى الى عقر داره حيث يمكن أن يستمع الى صوت مصر • اذ أن هناك نوعين من المقاومة ، أحدهما سلبى يتمثل فى العصيان المدنى والآخر ايجابى يحتم أخذ زمام المبادرة وتعرية العدو من كل المثل والقيم الحضارية التى يتذرع بها لاخفاء أهدافه الاستعمارية والانتهازية • ففى أعقاب أول مظاهرة حدث فيها اطلاق الرصاص على المصريين، أرسلت هدى شعراوى خطابا الى ليدى برونيت أظهرت

فيه أسفها على ما وقع من الضباط الانجليز ، خاصة وأن هذه السيدة كانت قد كررت على مسامع هدى شعراوى مرارا أن انجلترا لم تخض الحرب طمعا فى الاستعمار ، بل خاضتها رغبة فى انقاذ الأمم الضعيفة واعادة استقلالها اليها · فما كان من هدى شعراوى سوى أن أرسلت اليها هذا الخطاب بتاريخ ٢٢ مارس ١٩١٩ لتتذكرها بأقوالها ، خاصة وأن زوجها كان يمثل أكبر مركز للسلطة البريطانية فى مصر ، فضلا عن أنها أمريكية الجنسية ويمكن أن يكون لها بعض التأثير عليه · فى هذا الخطاب سألتها هدى شعراوى :

« ما فكرك يا سيدتى فى حكومتك التى تخول نفسها حق اعلان الأحكام العرفية فى زمن السلم ، وتنفى عن بلادهم أناسا لا يطالبون الا أن يعيشوا أحرارا فى بلادهم ، كرماء للجميع ؟!

« ما قولك فى جنودك الذين يجوبون بالمدافع الرشاشة طرقات مصر الهادئة ، ويطلقون الرصاص على شعبها الأعزل اذا رفع بعض الصبية صوتهم مطالبين بالحق والحرية ؟!

« أرجو أن تخبرينى يا سيدتى اذا كانت هذه

نتيجة كل المجهودات التي بذلتها انجلترا في خدمة الانسانية والعدالة ، والا فتفضلي بشرح المعنى الصحيح لكلماتك الجميلة التي كنت أسمعها منك ٠

« اذا كانت فئة من الصغار قد ضربت بعض الحوانيت ، فانها لم تفعل ذلك الا لأنها حذت للأسف الشديد المثل الذى ضربه لها جنودكم المتمدينون جدا في زمن غير بعيد ٠

«وتقبلي ياسيدتي عبارات شعورى الحزين ممزوجة بتحياتي » ٠

ولعل هذا الخطاب يجسد منهج هدى شعراوى الفكرى ، وأسلوبها في اخراجه الى حيز التطبيق ٠ فبرغم الظروف الملتهبة التي حررته فيها ، فاننا لا نلاحظ أى تشنج أو تهور أو تطاول أو انفعال أهوج يضيع الحق ولا يحافظ عليه ٠ فمن الواضح أن أسلوب الخطاب ، رصين ، هادئ ، متزن ، ذو منطق متماسك وحجة ناصعة لا يمكن دحضها الا بالبطش أو التجاهل٠ فالعبرة ليست بالكلمات المنمقة الجميلة ، ولا بالشعارات البراقة المبهرة ، وانما بالأعمال المادية الملموسة التي تكشف عن النوايا الحقيقية ٠ وما فعله الانجليز في حق

المصريين لا يمت للعدالة أو الحرية أو الحق أو الحضارة أو التمدين بصلة من قريب أو بعيد • بل ان هدى شعراوى تستخدم فى خطابها نغمة السخرية التى اشتهر بها الانجليز عندما تتكلم عن المثل الأعلى الذى ضربه جنود انجلترا المتمدينون جدا للصبية المصريين الذين ضربوا بعض الحوانيت • وهى السخرية التى تعتمد على التعبيرات الموجزة والمكثفة ، وتثير من التساؤلات ما يحمل فى طياته الاجابات البدهية عنها • ولذلك جاء الخطاب مشحونا بكل ما يجول فى ذهن وقلب كل مصرى برغم قصره وايجازه •

ولا يهم بعد ذلك أن ليدى برونيت لم تفعل شيئا بناء على الخطاب ، بل وأظهرت لمعارفها وأصدقائها دهشتها منه ، وادعت أنها لم تفهمه ، بل المهم أن هدى شعراوى لم تترك بابا الا وطرقته ، ولم تتوقع أن تفتح لها كل الأبواب حتى لو كان بعضها مألوفا لديها مثل صداقتها الشخصية لهذه السيدة • ويكفى أنها بخطابها هذا اكتسبت تقدير الزعماء المصريين وفى مقدمتهم زوجها على شعراوى باشا الذى كان وكيلا للوفد المصرى فى غيبة سعد زغلول فى المنفى • فلم يشأ زوجها لها أن ترسل خطابها هذا قبل أن يعرضه

على سكرتير لجنة الوفد ، خوفاً من أن تكون قد تجاوزت بجراتها حدود القانون • وبالفعل عرضه عليه وعلى زملائه ، ثم عاد اليهـا متهلل الوجه ، وقال : « لقد أعجبنا خطابك لدرجة آننا قررنا الاحتفاظ بصورته في المضبطة » •

لكن هذا لا ينفى أن الحماسة كانت تجتاح هدى شعراوى فى بعض الأحيان ، خاصة فى المواقف الملتهبة التى لا تحتمل صوت العقل • فعندما حاصرت قوات الاحتلال النساء المتظاهرات صباح يوم ٢٠ مارس ١٩١٩ أمام بيت الأمة ، أرادت هدى شعراوى أن تشق طريقها بالقوة لتقود مسيرة السيدات التى توقفت ، فاذا بجندى انجليزى يجلس القرفصاء يسرع ويصوب فوهة بندقيته الى صدرها • وعندما حاولت أن تتقدم نحوه ، أسرعت احدى السيدات لتجذبها من الخلف حتى تمنعها من التقدم ، فقالت لها هدى بصوت عال : « دعينى أتقدم ، ليكون لمصر اليوم مس كافيل » • فما كاد الجندى يسمع هذا الاسم ، حتى خجل وقام على الفور •

ومس كافيل هذه ثائرة ايرلندية ضد الاحتلال البريطانى لايرلندا ، وكانت من الزعيمات اللاتى

عملن تحت قيادة ديفاليرا الثائر الايرلندى الشهير ، وأراد الانجليز أن يوقفنها عند حدودها لكنهم عجزوا مما اضطرهم الى قتلها فى النهاية لتكون عبرة لغيرها • لكن هذه الجريمة أصبحت وصمة فى جبين الامبراطورية البريطانية التى تعرت من كل ادعاءات الحق والعدالة والحضارة •

واستمر حصار السيدات ثلاث ساعات تحت وهج الشمس لدرجة تمنت فيها هدى شعراوى أن تصيبهن ضربة شمس لتقع مسئولية ذلك على السلطة البريطانية التى اهتزت بالفعل عندما توجه الطلبة الى سفارات أمريكا وايطاليا وفرنسا صارخين : « لقد حاصرت السلطة الانجليزية سيداتنا أمام منزل زغلول • نطلب الانصاف والمساعدة » • وتوجه السفير الأمريكى الى موقع الحصار والتقط بعض الصور الفوتوغرافية مما دفع باللواء رسل باشا حكمدار القاهرة الى رجاء هدى شعراوى بعودة السيدات الى منازلهن بدعوى مخالفتهن لأوامر السلطة بهذه المظاهرة • تماسكت هدى شعراوى وقالت له بهدوء : « لقد قرأنا فى جريدة المقطم أن السلطة البريطانية قد صرحت باقامة هذه المظاهرات ، ولذلك خرجنا • فبأى حق يعترضوننا بعد هذا

التصريح ؟ » لكن رسل باشا أكد عـلى أن الخبر خطأ ، ومن الأفضل أن يعدن الى بيوتهن ·

وجدت هدى شعراوى أن لهجته المنذرة بالوعيـد تقتضى تمسكها بالحكمة ، فهى لا تحبذ التضحيةالرعناء غير الايجابية، ولذلك طلبت من زميلاتها وفى مقدمتهن فنانات من أمثال روز اليوسـف ومارى ابراهيم فض المظاهرة على أن يعدن اليها فى وقت آخر · ولكن قبل العودة الى بيوتهن ، زرن السـفارات وأبلغن المسئولين فيها احتجاجهن على بطش السلطة البريطانية ، وعـلى استمرار الحماية غير المشروعة وقيام الأحكام العرفية فى البـلاد بلا مبرر · وقد تلقين منهم كل تعـاطف ومشاركة وجدانية ولكن بلا نتائج ايجابية على حـد قول هدى شعراوى فى مذكراتها · فقد كانت تقيس دائما قيمة الجهد بنتائجه الايجابية الملموسة ·

ومع ذلك فقد كانت للمظاهرة نتائجها الايجابية التاريخية · فمن خلالها أثبتت المرأة المصرية عمليـا قدرتها على خوض أعتى المعـارك الوطنيـة وأخطرها بلا أدنى تردد ، وعلى قدم المساواة مع الرجل ، حتى فى ميدان الاستشهاد ، لدرجة أن شـاعر النيل حافظ

ابراهيم نظم قصيدة شهيرة تحية لشجاعة المرأة المصرية وجرأتها ، وتسجيلا لهذا الحدث التاريخى • وكانت القصيدة قد طبعت ووزعت دون توقيع نظرا للأحكام العرفية التى منعت حرية النشر والرأى والاجتماع والتظاهر •

وكانت هدى شعراوى واقعية وعملية بحيث آمنت بأن أى عمل جماعى قد يبدو غير مثمر لأول وهلة ، يمكن استخراج نتائج ايجابية منه اذا ما آتقن استغلاله بناء على استراتيجية طويلة النفس • فبرغم آن رسل باشا أجبر السيدات على فض مظاهرتهن ، وبرغم أنهن لم يحصلن من السفارات الأمريكية والايطالية والفرنسية سوى على التأييد المعنوى ، فيكفى أنها أحرجت السلطة البريطانية وعرتها أمام العالم أجمع •

ولم تأل هدى شعراوى جهدا فى استخدام قوة الدفع التى أحدثها اشتراك المرأة فى الثورة • فقد أوحى اليها وعيها السياسى الشامل بأن قضية المرأة وتحريرها لا تنفصل عن قضية الوطن وتحريره ، وعلى المرأة أن تثبت للرجل عمليا أن دورها فى تحرير الوطن من الاستعمار لا يقل عن دوره بأية حال من الأحوال •

فلا وجود لأحرار في وطن محتل ومستعبد ، ولا وجود لعبيد ، رجالا كانوا أم نساء ، في وطن حر مستقل ٠ ولذلك نلاحظ أن انهماك هدى شعراوى فى القضية القومية فى تلك المرحلة طغى على اهتمامها بقضايا المرأة ، لأنها آمنت بأن اشتراك المرأة عمليا فى الكفاح والثورة هو أقوى دليل مادى للاعلام المؤثر المقنع عن تحرير المرأة التي أثبتت جدارتها فى أخطر المجالات القومية ٠

واصلت هدى شعراوى استغلال قوة الدفع فى احداث المزيد من المد الثورى ٠ ففى ١٢ ديسمبر ١٩١٩ عقدت اجتماعا نسائيا بزعامتها فى الكنيسة المرقسية بالقاهرة لضرب أكثر من عصفور بحجر واحد ٠ فهو اجتماع معقود فى الكنيسة القبطية لاعلان السخط على وزارة يوسف وهبه القبطى وعلى لجنة ملنر حتى يتأكد أن اللعب على وتر الفتنة الطائفية محكوم عليه بالفشل مقدما ، وأن سياسة « فرق تسد » التى حاولت السلطة البريطانية تطبيقها فى مصر ، لم تعد تنطلى على أحد ٠ وانتهى اجتماع السيدات المسلمات والمسيحيات باصدار بيان أكدن فيه مقاطعة لجنة ملنر والتمسك بالاستقلال التام ٠

وتواصلت موجات الدفع الثورى . ففى ١٦ يناير ١٩٢٠ سارت مظاهرة نسائية من ميدان باب الحديد الى عابدين هاتفة ضد الاستعمار ومتصدية للجنود الانجليز ، فى حين قامت طالبات المدارس بالخطابة فى الشوارع ، وركبت النساء عربات الترام وهن يصحن «يسقط ملنر»، ولم يرضخن لأوامر الضباط بانزالهن وعجز الجنود عن تنفيذ الأوامر . ولعل أهم شهادة لقدرة المرأة المصرية على الثورة ومواجهة التحدى الاستعمارى كانت فى جريدة التايمز البريطانية التى قالت بأن المتظاهرات بهرن الرجال، المصريين والأجانب على حد السواء اذ أرينهم أن فى استطاعة المرأة المصرية أن تعنى بغير أولادها وملابسهم » .

وقد أثبت الرجل المصرى مرونته الفكرية فى تقبل المتغيرات الجديدة التى أحدثتها المرأة ، فرحب بها باكبار وتقدير ، ولم يعترض الرافضون على خوضها غمار الثورة ، بل سار أشد أنصار القديم جمودا جنبا الى جنب مع زوجته أو ابنته أو أخته . ودوت خطب النساء الملتهبة فى المساجد والكنائس . وذلك برغم كل المجهودات المكثفة التى قام بها الانجليز للحد من النشاط النسائى المتزايد .

وكان ايمان هدى شعراوى بالعمل الجماعى المنظم ايمانا عميقا ٠

ولذلك لم تصب بالنرجسية وعقدة العظمة وغير ذلك من الأعراض التى تنتاب كثيرا من الزعماء عندما يجدون أنفسهم محط الأنظار وملتقى الأضواء فيتصرفون وكأنهم مركز الكون ٠ كان كل همها تكوين الفريق المتناغم المتكامل حتى يصبح بمثابة المدرسة التى تتخرج فيها القيادات النسائية التى ستواصل حمل الرسالة الحضارية ٠ وبالفعل كان الفريق يتصرف ويصدر قرارات فى غيبة هدى شعراوى نفسها ٠ فمثلا تألفت «لجنة الوفد المركزية للسيدات» فى اجتماع كبير ضم حوالى ألف امرأة ، وعقد فى الكنيسة المرقسية فى ٨ يناير برياسة استر فهمى ويصا ، وتم فيه انتخاب الرئيسة والعضوات ٠ وحصلت هدى شعراوى على أغلبية الأصوات برغم تغيبها فى الأقصر فى ذلك الوقت ٠ وسادت الروح الديمقراطية بصدور القرارات بأغلبية الآراء ، واذا تساوت يرجح رأى الفريق الذى فيه الرئيسة ٠ وتألفت اللجان المختلفة لتنظيم كفاح المرأة فى المجالات السياسية والاجتماعية والثقافية والتربوية والصحية ، وعينت صفية زغلول رئيسة

شرف • وبمجـرد الاعلان عن قيام اللجنـة ، انهـالت التوكيلات عليها من سيدات القاهرة والأقاليم، وبالتالى اتسعت دوائر أنشطتها ، وتجسـد فيها الرأى العـام النسائى الذى أصـبح مؤثرا فى مجـريات الأمور ، بل وفى القرارات السياسية القومية •

وكانت هدى شـعراوى حريصـة على آخـذ زمام المبادرة بيدها حتى لا تجد نفسها وفريقهـا فى موقف الدفاع الذى قد يجبرها على تنازلات هى فى غنى عنها• وهو المنهج الذى برز فى احتجاج « لجنة الوفد المركزية للسـيدات » فى ٢٠ مارس ١٩٢٠ عنـدما حلل موقف السلطة البريطانية من مصر فقال :

« فهم يرغموننا على الاستعباد بدعوى أنهم يريدون أن يؤهلونا للحرية وقد تناسوا حكمة مؤرخهم ماكولى حيث قال : اذا انتظر النـاس الحرية الى أن يكتسـبوا الحكمة والصلاح وهم فى ظل حكم الاستبداد ، فبشرهم أنهم سينتظرون أبدا » •

أما على المسـتوى المحلى فلم تفقد هدى شـعراوى زمام المبادرة حتى فى مواجهة سـعد زغلول وشـعبيته الكاسحة بعد عودته من المنفى عام ١٩٢٢، وبرغم تبعية

لجنة الوفد المركزية للسيدات لحزب الوفد . فقد اختلفت مع سعد زغلول لموافقته على البند الخاص بالسودان والذى نادى الملك فؤاد ملكا على مصر دون السودان فى بيان توفيق نسيم عند توليه الوزارة . وكان سعد زغلول قد أرسل يهنئه على بيانه ، فثارت هدى شعراوى لكنه لم يعبأ بثورتها ، بل انه تجاهلها فى الاحتفال السنوى للوفد فى ١٣ نوفمبر ١٩٢٢ برغم أن العادة جرت على حضورها ولجنة الوفد المركزية للسيدات منذ ثورة ١٩١٩ . فما كان من هدى شعراوى الا أن أرسلت رسالة شخصية اليه تخطره فيها بالرغبة فى عدم العمل معه فى اللجنة السابقة كما قدمت استقالتها ، خاصة وأنها فى عام ١٩٢٠ كانت قد عادت الى احياء جمعيتى « الرقى الأدبى للسيدات المصريات » و « المرأة الجديدة » وذلك بدمجهما فى جمعية جديدة باسم « المرأة الجديدة » ، ضمت سيدات وآنسات مصريات بهدف اعلاء شأن المرأة وتحريرها من الغبن الذى وقع عليها لقرون طويلة ، وصنع الخير من أجل الانسانية جمعاء ، وتوعية المواطنين بحقائق العصر التى يجب أن يستوعبوها ، والقاء محاضرات تنوير وتثقيف للنساء فى كافة المجالات ، وتشجيع الأشغال اليدوية من

انتاج ربات البيوت ، وعمل سوق خيرى لتصريف المنتجات سنويا مع انفاق عائد هذه السوق الدورية على ترقية الجمعية ، وتوسيع نطاق خدماتها ، وطبع المحاضرات والخطب فى كتيبات توزع على الأعضاء والمشتركات ٠

وقد رحبت الأوساط النسائية ببرنامج جمعية « المرأة الجديدة » ونشاطها الملموس لدرجة آن المجلات النسائية تسابقت فى شرح مميزات الجمعية وأهدافها وانجازاتها ، وطالبت بتوسيع نشاطها ليشمل النواحى الصحية والرياضية ٠ ومع ذلك فان طاقة هدى شعراوى كانت أكبر وأضخم من امكانات هذه الجمعية ، فقامت بتشكيل تنظيم نسائى آخر قام فى ١٦ مارس ١٩٢٣ على أنقاض لجنة الوفد المركزية للسيدات ، وكان اسمه « الاتحاد النسائى المصرى » الذى تم الاعتراف به رسميا ، ولم يقتصر نشاطه على قضايا المرأة ، بل امتد ليشمل كل قضايا الوطن المصرية ، ذلك أن هدى شعراوى كانت حريصة دائما على قيام المرأة بدورها القومى بصفتها انسانا ومواطنا وعضوا عاملا فى المجتمع وليس بصفتها النسائية فحسب ٠ وقد اتضح هذا الاتجاه فى البرنامج السياسى للاتحاد والذى تمثل

فى العمل من أجل الاستقلال التام لمصر والسودان ، والتمسك بحياد قناة السويس وفقا للمعاهدات الدولية ، واسقاط آية قيود مفروضة على الأمة خاصة اتفاق السودان لعام ١٨٩٩ وتصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ ، ورفض ما ورد فى معاهدة لوزان عام ١٩٢٣ من تحمل الخزانة المصرية قسما من ديون تركيا ، وحل الامتيازات الأجنبية حلا وديا بين حكومة مصر والدول المعنية . وتعديل الدستور بما يتفق وسلطة الأمة وسيادتها ، وتسوية القروض المالية والمشاريع التى تقوم بها انجلترا بصفة خاصة ، وتعديل الأحكام العرفية تدعيما لحرية الصحافة والاجتماع ، والتعيين فى مجلس الشيوخ ، والتصديق على القوانين والتشريع فى غياب البرلمان، وتعيين الضباط وعزلهم، واستجواب الوزراء ، وتعديل قانون الانتخاب ، والغاء القوانين الاستثنائية ، ومراجعة التعديلات التى أدخلت على قانون العقوبات ، وتقييد تعيينات الموظفين الانجليز وكذلك التعويضات التى تدفع لهم . أما بالنسبة للجيش والبحرية والطيران فلابد من اعدادها لسلامة البلاد ، مع نقل مقاليد كل هذه الأمور الى أيد مصرية فى مدة محدودة .

وكانت هـذه الاستراتيجيـة من الـوعى العميق والدراية الشاملة بالسياسة الدولية بحيث كشفت كل ألاعيب الحكومة البريطانية خاصة فيما يتصل بالسودان. فقد كونت هدى شعراوى لجنـة لمقاطعـة بريطانيا تم انتخابها رئيسا لها ، وذلك احتجاجا عـلى الاجراءات التى اتخذتها بريطانيا فى أعقاب الاعتداء على السير لى ستاك . وتمثلت سياسة المقاطعة فى التخطيط لسحب الودائع والأموال من البنك الأهلى ، والغـاء أو نقـل مكتب الحكومة المعين فى انجلترا للاشراف على مشترياتها، ومنع سفر العمال المصريين الى السـودان ، واستدعاء الموجود منهم والذين يعملون فى الخزانات ، والافراج عن المقبوض عليهم هناك ، وفتح كلية الخرطوم واعادة التدريس بها ، وحق الحكومة المصرية فى ادارة السودان ورفع الراية المصرية .

وكان لهذه الاستراتيجية الواعية الشاملة صـدى فعـالا فى الأوسـاط البريطانية ذاتهـا ، لدرجة أن الكاتبات الانجليزيات اتهمن هدى شـعراوى بالتطرف السياسى ، ومع ذلك فقـد بهرن بقـوة شـخصيتها ، واعترفن بذهولهن لتلك الصلابة والقـوة التى تتمتع بهـا المرأة المصرية ، وكيف أصرت عـلى هدم حواجز

العادات والتقاليد البالية الراسخة ، وكيف شرعت بالفعل في احداث هذا التغيير المذهل ٠

وكانت هدى شعراوى تؤمن بأن سلاح الرأى العام الوطنى لا ينفصل عن سلاح الرأى العام العالمى، ذلك أن التفاعل بينهما يمكن أن يحدث آثارا ايجابية سواء على المدى القريب أو البعيد ٠ فعلى مستوى الرأى العام الوطنى طالب الاتحاد النسائى المصرى بالديمقراطية السياسية ، ومنح المرأة حق الانتخاب ، ونشر التعليم الابتدائى بصفة الزامية ، والاكثار من البعثات العلمية ، وفتح باب التعليم الثانوى والعالى أمام الجنسين ، والتركيز على التوعية الصحية ، وادخال مواد القانون والموسيقى فى برامج التعليم لاشاعة روح العدالة والوعى الانسانى ولتهذيب النفوس فنيا وروحيا ، وتشجيع حركة الترجمة لنقل نفائس الكتب وأمهات المعرفة ، وتطوير الصناعة وترويج المنتجات المصرية ، وحمايتها من المنافسة الأجنبية وتشجيعها بشتى الوسائل ، ومحاربة المسكرات والمخدرات ، وحل المشاكل الأسرية بطريقة عادلة تضمن للمرأة حريتها وانسانيتها ، ووضع قانون يمنع تعدد الزوجات ، وجعل الطلاق أمام القاضى ، والزام المطلق بالنفقة ،

وزيادة سن الحضانة للأطفال وغير ذلك من قوانين الأحوال الشخصية ·

أما على مستوى الرأى العام العالمى فقد حرصت هدى شعراوى على الاشتراك فى أى نشاط عالمى للمرأة حتى تفتح نوافذ الفكر المصرى على التيارات العالمية للحركة النسائية وذلك على النقيض مما كانت تدعو اليه بعض القيادات النسائية المصرية التى حاولت التركيز فقط على اصلاح أحوال المرأة فى الداخل · رفضت هدى شعراوى هذه النظرة الضيقة ، وأعلنت أن مشاركة المرأة المصرية فى المؤتمرات الدولية يفتح مجالا هاما لاثبات وجودها ، وتعريف العالم الخارجى بفكرها ، وقضيتها ، ومشاكلها ، سواء مع الاستعمار أو مع الرجل لعلها تحصل على تأييد الوفود المشتركة فى هذه المؤتمرات أو تحييدها على أقل تقدير تجاه قضايا نضالها من أجل حقوقها الأساسية ·

فى مارس ١٩٢٣ تلقت هدى شعراوى بصفتها رئيسا للاتحاد النسائى دعوة لحضور مؤتمر روما النسائى الدولى ، وقامت قيامة المتعصبين المتزمتين من

خلال الندوات والخطب والمقالات التى تنـادى بعـدم حضور هذه المؤتمرات · لكن يبـدو أن المد الفـكرى الذى أحدثته هدى شعراوى كان من القـوة والتدفق بحيث اكتسب الى جانب قضية المرأة مفكرا محافظا مثل محمـد فريد وجـدى الذى كان من ألد أعداء قاسم أمين ، وألف كتابا بعنوان « المرأة المسـلمة » ليدحض فيه آراءه التي وردت في كتابيـه « تحـرير المرأة » و « المرأة الجديدة » · هذا المفكر المحافظ اقتنع أخيرا بمنطق هدى شعراوى وحجتها ، ودفعه تفكيره الموضوعى الى الدفاع عن حق المرأة المصرية فى حضـور مؤتمر روما ، قائلا فى مقـال له نشر فى مجلة « النهضـة النسائية » بعنوان « المرأة المصرية والمؤتمر » :

« اذا كان المخالفون لحضور السيدات ذلك المؤتمر يستندون على الدين فقد سمح الدين للمرأة بالسياحة وبأن تتبع ما يقر عليه عقلها من المذاهب فى عبادتها ومعاملاتها ، وشكل حكومتها وسياسـة أمتهـا وحاجة بنات جنسـها ولم يشترط فى ذلك الا صيانة عرضها ورعاية كمالها · فضلا عن أنه لم يحرم المرأة من حق الانتخاب ، وقضى أن تحضر النساء مجـامع الشـورى لابداء رأيها فى الشئون العامة · وقد كانت النسـوة

يحضرن تلك المجامع ، فى الصدر الأول للاسلام ويبدين آراءهن علنا . وقد حدث مرة أن اعترضت امرأة على أمير المؤمنين عمر نفسه فى تحديد الصداق فرجع الى قولها » .

مثل المرأة المصرية فى مؤتمر روما وفد برئاسة هدى شعراوى وعضوية سيزا نبراوى وريجينا خياط ومدام ويصا واصف ، وقد نجح الوفد نجاحا تاريخيا فى تشريف المرأة المصرية عالميا ، معتمدا على وعيه الحضارى والسياسى ، وعلى ثقافته العميقة الشاملة ، واتقانه للغات الأجنبية وفى مقدمتها الفرنسية ، مما غير من صورة المرأة المصرية فى نظر العالم الخارجى الذى كان يعتبرها مجرد جارية لا هم لها سوى خدمة الرجل وارضاء شهواته . فقد أثبتت هدى شعراوى قدراتها الفائقة فى استخدام كل موقف قد يطرأ على غرة ، فى تقديم صورة مبهرة لمصر الصامدة . فمثلا عندما ذهب الوفد المصرى الى المؤتمر وجد أعلام الدول ترفرف فوق قاعة الاجتماع ، ولم يكن قد استعد لذلك لعدم خبرته بهذه المؤتمرات التى يحضرها لأول مرة . وسرعان ما طلبت هدى شعراوى من طلاب البعثة المصرية هناك تجهيز علم ثورة ١٩١٩ الذى يتعانق

فيه الهلال والصليب ، فصنعوه أكبر حجما من كل الأعلام الموجودة فلما لفتت نظرهم علقوا بقولهم ان مصر أعرق الأمم ويجب أن يكون علمها أكبر الأعلام ٠ نقلت هدى شعراوى وجهة نظر أبنائها الطلبة الى رئيسة المؤتمر التى تأثرت تأثرا عظيما عندما فتح أمامها العلم ورأت عليه الهلال يعانق الصليب ، فأمرت بوضعه على يسار المنصة معادلا للعلم الايطالى على يمينها ، فشغل بذلك الموقع الممتاز بعد علم الدولة المضيفة ٠ وبهذه المبادرة اللساحة أزالت هدى شعراوى فكرة التعصب الدينى التى حاول الاستعمار البريطانى الصاقها بثورة ١٩١٩ ٠

ونجحت هدى شعراوى فى ربط الحركة النسائية المصرية بالحركة النسائية العالمية ، وأصبح الاتحاد النسائى المصرى فرعا للاتحاد النسائى الدولى فى مصر ، أى أنه أصبح اتحادا ذا صفة دولية وصفة قومية ، معترفا به فى مصر والخارج ٠ تقول هدى شعراوى فى مذكراتها :

« ولقد اندمجت جمعيتنا فى الاتحاد النسائى الدولى على أساس المطالبة بحقوق المرأة السياسية

والمدنية لتخويلها حق الانتخاب ، وللعمـل عـلى نشر مبادىء السـلام وتوطيد دعائمه ، فأصـبحت جهود المرأة المصرية عالمية لا محلية فقط • وهذا نصر كبير لبنات القرن العشرين فى مصر » •

وكان الخطاب الذى ألقتـه هـدى شـعراوى فى المؤتمر بمثابة وثيقة تاريخية ، تناولت فيه قضـايا المرأة الشرقية والعالمية بالتحليل الحضارى والتاريخى والعلمى والموضـوعى ، من خلال أسـلوب هادىء ، متزن ، مقنع ، خال من الحماسة الجوفاء ، كما ناقشت فيه مشـاكل التعليم النسـائى ، وتعدد الزوجات ، والطـلاق ، والميراث ، والنفقة والوصاية ، والتوعية الصحية ، والخرافات • كما عرجت هدى شعراوى على التنويه بثورة ١٩١٩ بصفتها الامتحان العملى الحاسم الذى اجتازته المرأة المصرية بكل اصرار ونجـاح ، لتثبت كيانها الحقيقى الملموس وقدرتها على المشاركة فى تحرير الوطن وبنائه •

ولابد أن نسـجل لهـدى شعراوى ريادتهـا التى واكبت الحركة النسائية العالمية فى مراحلها المبكرة • أى أن مصر لم تتخلف عن ركب الحضارة الانسانية فى

هذا المجال الحيوى الخطير بفضل هدى شعراوى التى كانت تؤمن بأن حركة تحرير المرأة هى حركة عالمية بطبيعتها وتاريخها، وأن أى مكسب تحققه المرأة فى أية بقعة من بقاع العالم ، هو مكسب للمرأة فى كل مكان ، لدرجة أنها دافعت عن حقوق المرأة الايطالية عند لقائها مع موسولينى فى نهاية المؤتمر • تقول فى مذكراتها :

« توجهت المندوبات المشتركات فى المؤتمر لمقابلته فى قصر الرئاسة ، وتعمدن أن يذهبن سائرات على الأقدام كرجاء له فى أن يمنح المرأة الايطالية حق الانتخاب •

وقد استقبلنا وصافح أعضاء المؤتمر واحدة واحدة • وعندما جاء دورى وقدمت اليه كرئيسة وفد مصر ، عبر عن جميل عواطفه ومشاعره نحو مصر ، وقال انه يرقب باهتمام حركات التحرير فى مصر ، وجهاد المصريين والمصريات فى سبيل استقلال بلادهم • ثم تحدث عن توطيد العلاقات التى تربط ايطاليا بمصر وغيرها من دول البحر المتوسط • وأشاد بماضى مصر المجيد ومدنيتها العريقة وبما كان بين الدولتين من

علاقات طيبة وصداقة قديمة ، وأعرب عن أمله في تجديد ذلك ودوام ارتباطه ٠

ولقد كانت هذه اللفتة منه نحو مصر جديرة بالتقدير ، فأعربت له عن فائق تأثرى بهذه العناية ، وبدورى تحدثت عن مجد ايطاليا السابق والحاضر ٠ ثم كررت رجائى الخاص بمنح المرأة الايطالية حقوقها السياسية » ٠

وفى العام التالى اشتركت المرأة المصرية فى مؤتمر جراتس الدولى بالنمسا فى الفترة بين ١٨ و ٢٠ سبتمبر ١٩٢٤ ٠ وكانت قضيته الأساسية ، ايجاد السبل الكفيلة بالقضاء على الرق والبغاء كما يتمثلان فى الاتجار بالنساء والأطفال ٠ وألقت فيه هدى شعراوى خطابها بالفرنسية التى تنطقها كأبنائها ، وتقدمت بتوصيات حظيت باهتمام الوفود ، وكان أهمها هو دعوة المؤتمر للسعى لدى الحكومات حتى تغلق بيوت البغاء فى بلادها ، خاصة أن معظم الفتيات اللاتى يتورطن فى هذا المصير البائس لم يبلغن سن الرشد ٠ كما أوضحت هدى شعراوى المشاكل الأخلاقية والأمراض الاجتماعية الناجمة عن وجود هذه المنازل

اذ أنها بؤرة للأمراض الخبيثة التى تفتك سواء بالفتيات العاملات فيها أو بالرجال المترددين عليها .

وكعادة هدى شعراوى فى ضرب أكثر من عصفور بحجر واحد ، فانها أبرزت فى خطابها مساوىء وجود الامتيـازات الأجنبيـة فى مصر لما لهـا من متـاعب اقتصادية واجتماعية متصلة بقضايا الرق والبغاء . ونبهت الوفود الى أن معظم منـازل البغاء الـكبيرة فى مصر هى ملك للأجانب ، وأن قانون الامتيازات يحول دون تعقبهم أو محاكمتهم أو اصدار تشريعات بغلقها ، وطالبت أن تحتذى دول العالم حذو بريطانيا وسويسرا وهولندا فتحظر وجود هذه المنازل، كما طالبت المؤتمر أن يتدخل لدى الحكومات صاحبة الامتياز لكى تسمح لمصر بأن تغلق هذه المنازل .

وفى ٦ مايو ١٩٢٦ دعيت هدى شعراوى لحضـور مؤتمر باريس النسـائى الدولى . وقد تجلى سـلوكها الديمقراطى فى دعوة عضوات الاتحاد النسائى المصرى قبل كل مؤتمر دولى لمناقشة أولويات القضـايا الملحة الجديرة بالاثارة فى المؤتمر الدولى . واتفقن على أن عرض قضية الطلاق والطاعة وتعدد الزوجات تعتبر من

أهم القضايا التي يجب أن يبحثها المؤتمر لعل الحاضرات يمكنهن الوقوف على حقيقة أحـوال المـرأة المصرية • وذلك لأن المؤتمرات الدولية قد أفادت الحاضرات من خلال عرض قضاياهن والعودة بحلول يمكن تطبيقها في بلادهن •

وفى أغسطس ١٩٣٤ دعيت هدى شعراوى وسيزا نبراوى لحضور مؤتمر باريس النسائى الدولى الثانى لمقاومة المد الاستعمارى والفاشى ، وللاحتفال بمرور عشرين عاما على اندلاع الحرب العالمية الأولى، وللاعلان عن تضامنهن مع اخواتهن نســاء الشـعوب المضطهدة ، العربيات والهنديات والصينيات والزنجيات ، ولربط حركة تحرير المرأة من الظلم والاضطهاد بحركة تحرير البلاد والشعوب من الاستعمار والفاشية •

وفى العام التالى (١٩٣٥) حضرت هدى شعراوى مؤتمر استانبول الذى اختيرت فيه نائبة لرئيسة الاتحاد النسائى الدولى ، وهو المنصب الذى ظلت تشغله حتى وفاتها عام ١٩٤٧ • ففى ١٩٣٥ ، افتتح المؤتمر الذى ضم مندوبات أربعين دولة يمثلن مائتى مليون من نساء العالم فى سراى يلدز • وتعلق هـدى شـعراوى فى

مذكراتها على هذه السراى فتقول انها كانت فى سالف الزمن تأوى حريم السلطان عبد الحميد ، ثم دار الزمن دورته لتملى النساء على العالم رغباتهن من سراى يلدز نفسها • فتكلمت عن الوفد المصرى وألقت كلمة بالتركية شكرت فيها السلطات التركية والاتحاد النسائى التركى على الحفاوة البالغة التى قوبل بها أعضاء المؤتمر ، ثم ألقت خطبتها بالفرنسية عن ضرورة تعاون الشرق والغرب ومقاومة الحروب التى تهدد العالم • وتحدثت عن انضمام الأمم الشرقية الى الاتحاد النسائى الدولى رغبة فى التعاون مع الغرب لنشر السلام العام بين الأمم جميعا ، على أن يكون السلام قائما على العدل واحترام حقوق الشعوب ، وازالة الفوارق الجنسية والدينية وغير ذلك من المسائل الجوهرية •

وقد أصدر المؤتمر عدة قرارات هامة ، بناء على اقتراحات الوفد المصرى الذى كان له أكبر نصيب فى هذه القرارات التى تطالب نساء العالم جميعا بالكفاح من أجل المساواة والعدالة ، والجهاد لاستئصال شأفة انحطاط منزلتهن من الوجهة القانونية والاجتماعية والاقتصادية • وعرجت هدى شعراوى كعادتها على

الامتيـازات الأجنبيـة فى مصر فأوضـحت أن تطبيق مبدأ المساواة بين الرجل والمرأة مستحيل بسبب هـذه الامتيازات ، ولذلك فان المؤتمر طالب بزوال هــذا النظام المخالف لمبادىء المساواة ، وبخاصة أن مصر هى البلد الوحيد فى العالم الذى لايزال هذا النظام قائما فيه ٠

وقد طلبت السيدة استر فهمى ويصا عضو الوفد المصرى أن يعقد المـؤتمر التالى فى مصر لأنهـا قلب الاسلام ، كذلك فقد عبر المؤتمر عن تقـديره لجهـود الوفد المصرى بانتخاب هدى شـعراوى نائبـة لرئيس الاتحاد النسائى الدولى بأغلبيـة ١٤٨ صـوتا من بين ١٦٦ صوتا ٠ وكانت أول شرقيـة تنال هـذا اللقب الدولى المشرف ٠ وبعد انتهاء مؤتمر استانبول التقى مصطفى كمال أتاتورك بالمندوبات اللاتى حيا جهودهن من أجل تحرير المرأة ٠ ومع تقـديم رئيس وفد كل دولة ، جاء دور هدى شعراوى فتحدثت اليه مباشرة من غير مترجم ٠ وكان المنظر فريدا أن تقف سيدة شرقية مسلمة وكيلة عن الهيئة النسـائية الدوليـة ، وتلقى كلمة باللغة التركية تعبر فيها عن اعجاب سيدات مصر بحركة التحرير التى قادها فى تركيا ، وأن هذا المثل

الأعلى من تركيا الشقيقة الكبرى للبلاد الاسلامية شجع كل بلاد الشرق على محاولة التحرير والمطالبة بحقوق المرأة ٠

وانتهزت هدى شعراوى هذه المناسبة بعد عودتها الى مصر لتوضح صورة تركيا الحديثة فى الأذهان ، والتى اتهمها البعض بالكفر والالحاد فقالت فى حديث صحفى الى جريدة « المقطم » :

« انه ليلوح لى أن هذا الجديد الذى أحدثه الغازى العظيم لم يكن يعنى به ادخال القشور من مدنية الغرب على أبناء البوسفور أو بناته ، وانما كان يعنى به تجديد العقليات وتوجيهها الى وجهة التفوق مسايرة للجيل الحديث ، فالسيدة التركية اذن لم تفقد روعتها الشرقية الغالية ، ولكنها فقدت ــ بحكم النهضة الحديثة ــ هذا الجمود الذى كان يتناولها فيجعل منها مقعدة رهينة حجرات أربع ، ورهينة جهل مريع ٠ وهذا بلا ريب من نعمة الأقدار على أخواتنا فى استانبول » ٠

ويضيق بنا المجال لرصد كل انجازات هدى شعراوى فى مجال تعريف الرأى العام العالمى بقضية

تحرير المرأة فى مصر • فهناك مؤتمرات دولية أخرى حضرتها ورفعت فيها صوت مصر مثل مؤتمر امستردام عام ١٩٢٧ ، وبرلين ١٩٢٩ ، وكوبنهاجن ١٩٢٩ ، ومارسيليا ١٩٣٣ ، وبروكسل ١٩٣٦ ، وبودابست ١٩٣٧، وانترالاكن ١٩٤٥، وجنيف١٩٤٦، ونيودلهى ١٩٤٧ • بل انها لم تكتف بهذه المؤتمرات الدولية ، فقامت بزيارات شخصية الى بعض البلاد ذات الثقل الملحوظ فى قضايا المرأة للترويج لحركة تحرير المرأة الشرقية بصفة عامة • وكانت حريصة على آن يصل صوت المرأة المصرية الى كل مكان فى العالم ، وعلى أن تعرف الدنيا كلها ما حققته المرأة فى مصر الحديثة من تطور بعد أن لمست بنفسها كيف يتجاوب الرأى العام العالمى مع مطالب بلد تحققت فيه للمرأة مكانة طيبة ، مما يعتبر فى حد ذاته دليلا على تطور هذا البلد وتقدمه • فالمرأة هى المقياس الحضارى الحقيقى لأى بلد • ولذلك وصلت هدى شعراوى الى أمريكا يوم ٢٧ يوليو ١٩٢٧ بعد أن أعدوا لها لقاءات واجتماعات وندوات ومحاضرات كى تكشف فيها عن حقيقة الأوضاع الجديدة التى تعيشها المرأة المصرية ،

وكى تغير من الانطباع السائد عن تخلفها عن الركب الحضارى ·

وكانت سمعة هدى شعراوى الدولية قد سبقتها الى أمريكا فاستقبلها الكتاب ورجال الصحافة والجمعيات النسائية بالترحيب والتبجيل فى نيويورك وواشنطن وديترويت ، وانتهزت بدورها فرصة كل استقبال وأحالته الى لقاء فكرى عرفت فيه الشعب الأمريكى بانجازات المرأة المصرية فى شتى المجالات الاجتماعية والسياسية والثقافية والانسانية · كذلك قامت بزيارة مستشفيات ومعاهد رعاية الطفولة وتعليم الفقراء وغير ذلك من المشاريع الاجتماعية التى أخذت عنها ملاحظات ومذكرات لامكان الاستفادة بهذه التطبيقات فى مصر ·

وقد تجلت استراتيجيتها الثقافية الشاملة فى ايمانها بأن الفن الأصيل خير سفير لمصر فى الخارج ، ولذلك اصطحبت معها فى رحلتها معرضا للخزف ، وفضلت عرض هذا الانتاج الفنى على أرض مصرية ، أى فى دار المفوضية المصرية بواشنطن (السفارة المصرية فيما بعد) ، ولذلك رفضت عروض بيوت

المعارض فى نيويورك • وكانت المعروضات محل اعجاب كل من رآها من سفراء الغرب أو الشرق ، ومن رجال الفكر والفن والسياسة •

وعندما اكتشفت هدى شعراوى أن الغرب يظن أن الفنون الجميلة لا وجود لها فى مصر منذ حقب طويلة ، قررت فى الحال تغيير هذه الصورة الكئيبة ، واتفقت بعد عودتها ، مع جمعية محبى الفنون الجميلة على عمل معرض واف فى السنة التالية فى فرنسا وأمريكا لأعمال مختار ويوسف كامل وعياد وناجى وأحمد يوسف وهدايت وغيرهم حتى يرى العالم وجه مصر الجميل • تقول فى مذكراتها :

« لا شىء يرفع من شأن مصر مثل عرض هذه الأشياء • وكان اقبال الجمهور واعجابه مما يشجع على عمل مشروع أكبر وأعظم • وأتمنى على مواطنى فى مصر مساعدتى • ومما لوحظ آن عرض هذه المصنوعات وحدها غير كاف ، بل يجب أن يكون مكتوبا « صنع فى مصر » على كل قطعة، فهذه وحدها لها قيمتها الكبرى» •

فلم تكن هدى شعراوى تتوسع فى تجاربها ومشروعاتها الا بناء على تجارب سابقة حتى تضمن

حدا أدنى من النجاح• كانت التجربة خير دليل لها فى التقـدم خطوة خطـوة ، ولذلك لم تتـوقف أبدا عن التجريب الذى كان بمثابة الجانب التنفيذى والتطبيقى لريادتها الفـكرية الشـاملة التى جمعت بين الأصالة والمعاصرة فى وحدة عضوية متكاملة • فبرغم اعجابها بالانجـازات التى حققتهـا المرأة الأمريكية فى شـتى المجالات الأسرية والاجتماعيـة ، فانهـا لم تكن عـلى استعداد لتقبل كل ما يصـدر عن المـرأة الأمريكية من آراء واتجـاهات الا بعـد أن تحللها وتتفحصها تحت مجهر فكرها الموضوعى الأصيل • فمثلا يقول محمـد جميل بيهم فى كتابه « فتاة الشرق فى حضارة الغرب » ان السـيدة الينور عقيلة الرئيس الأمريكى فرانكلين روزفلت اقترحت أن ينص القـانون الأمريكى عـلى تعويض للزوجة من أرباح زوجها كبدل لقيامها بخدمة البيت ، وذلك على أساس الشركة بين اثنين يتولى كل منهما جانبا من مسئولية الأسرة وخدمتها ورفاهيتها • واقترحت أيضـا أن تحصـل البنات على أجـور لقـاء خدماتهن فى منازل آبائهن • وبذلك لا يتبقى للمرأة حجة لمغادرتها المنزل فى سـبيل العمـل والكسب بغية المساواة التامة مع الرجل • ثم يسجل جميل بيهم رأى هدى شعراوى فيما طالبت به الينور روزفلت فيقول :

« على أن هذا الاقتراح لم يرق فى حينه للزعيمة المرحومة هدى شعراوى باشا ، فسفهته فى الصحف بحجة أن العلاقة الاجتماعية بين الرجل والمرأة تقوم على التعاون لا على الاستخدام » ٠

فقد أدركت هدى شعراوى أن اقتراحا مثل هذا لو طبق على مجتمع شرقى مثل المجتمع المصرى ، فالله وحده يعلم الآثار التى يمكن أن تترتب عليه ، وربما كانت المرأة هى الطرف الخاسر فى النهاية ٠ فمن المحتمل أن يضرب الرجل عن الزواج ولن يعدم وسائل اشباع رغباته ، وذلك هربا من كل التبعات المالية والاقتصادية التى يمكن أن تترتب على زواجه وانجابه للبنات ، عندئذ ستمتلىء البيوت بالبنات البائرات ، ولن يلومهن أحد اذا حاد بعضهن عن جادة الصواب ٠ فمن المحتمل أن ينفجر البيت الذى تتحجر فيه الأوضاع على ما هى عليه مدة أطول من اللازم ٠ فعجلة الحياة لابد أن تدور ، ومن لا يعمل حسابا لها لابد أن تدوسه فى دورانها الأبدى ٠ ولذلك فان الضوابط المادية ليست وحدها الكفيلة بالحفاظ على حقوق المرأة فى مواجهة الرجل ، خاصة فى المجتمعات الشرقية التى تعلو من شأن القيم الروحية ٠ ولذلك فالحل المعقول

الذى يمكن تطبيقه فى مصر يتمثــل فى اشــاعة روح التعــاون والتنــاغم بين الرجــل والمرأة منــذ الصغر وتربيتهما وتعليمهما على هذا الأساس • ذلك أن هدى شعراوى لا تؤمن بأن القانون يمكن أن يصنع المعجزات فى تطوير حيــاة المجتمعات ، اذ أنه تحصيل حاصــل للأوضاع التى ترتبت على النشأة الأولى للأفراد • أما التربية الصالحة الصحيحة فمن شأنها أن تنقل القانون من مجرد نصوص جامدة على الورق الى ســلوك يومى وتقاليد راسخة للرجال والنساء على حد السواء •

كذلك كان الوعى العــربى القــومى عنــد هدى شــعراوى مبــكرا وحادا وعميقا فى وقت كانت فيــه مفــاهيم القوميــة العربيــة مجــرد شعارات عاطفية وحماسية ، ولم تتبلور بعد فى منــاهج فكرية • ففى عام ١٩٣٨ قامت بعقد المؤتمر النسائى لمعالجة قضية فلســـطين فى القــاهرة فى الفترة ما بين ١٥ و ١٨ أكتوبر ، بعد أن قامت بالتخطيط والدعاية له مما أثار اهتمام الرأى العام العربى والعالمى به • وكان مؤتمرا تاريخيا بمعنى الكلمة نظرا للعدد الضخم من القيادات النسائية العربية التى حضرته ، والنتائج والقرارات التى صدرت عنه لتعبر بعمق عن خطورة هذه القضية

التى لم تكن قد وضحت بعد • فقد أصر الانجليز على تحقيق مطالب اليهود مما أدى الى ثورة العرب فى أعوام ١٩٢٩ و ١٩٣١ و ١٩٣٣ ثم الثورة الكبرى التى استمرت أكثر من ثلاث سنوات وهى ثورة ١٩٣٦، وكانت أول ثورة فلسطينية تشترك فيها المرأة هناك مما أدى الى سجنها وقتل البعض منهن • وتوضح اجلال خليفة فى كتابها « المرأة وقضية فلسطين » كيف نظرت نساء القدس ونابلس وعكا الى هدى شعراوى بصفتها زعيمة لكل النساء العرب وطلبن منها بذل المساعدة الفعالة من المصريين لأخواتهن فى فلسطين اللاتى وقعن ضحايا للارهاب البريطانى والترمل والثكل والفقر والسجن والتعذيب •

ونظرا لحرص هدى شعراوى على أن يكون زمام المبادرة دائما بيد المرأة قبل أن يجرفها الطوفان الاستعمارى ومعها وطنها كله ، فانها سرعان ما دعت مجلس ادارة جمعية الاتحاد النسائى المصرى للانعقاد فى ٩ يونيو ١٩٣٦ ، وعرضت عليهن خطاب لجنة سيدات القدس • وبالفعل صدر عن الاجتماع قراران هامان : الأول يقضى بفتح اكتتاب عام يساهم فيه كل مصرى مؤمن بوحدة المصير العربى ، وتشكلت لجنة من

عضوات الجمعية لجمع التبرعات المرجوة · والاقتراح الثـاني احتجاج عـلى تنفيذ وعد بلفـور الذى يبث الكراهية والشقاق · ولم تكتف هدى شعراوى بذلك بل عملت على اصدار قرارات آخـرى خطيرة لمنـاصرة عرب فلسطين ، وأصدرت كتابا يحوى كل ما صدر عن المؤتمر من خطب وقرارات ، وما كتب عنه من تعليقات ومقالات ·

وفى عام١٩٤٤ بلغت ريادة هدى شعراوى العربية قمتها عندما نجحت مساعيها فى اقامة الاتحاد النسائى العربى الذى تم تشكيله قبل انشاء جامعة الدول العربية وكانت مساعيها قد بدأت بعقد مؤتمر نسـائى بدار الأوبرا الملكية بالقـاهرة فى ديسمبر ١٩٤٤ لوضـع الخطوط العريضة لهذا المشروع القومى الكبير، وأسفر المؤتمر عن تشكيل الاتحاد النسائى العربى العام الذى يمثله مكتب دائم مقره القاهرة ·

وكان لسـان حال هدى شـعراوى فى كل هـذه الانجـازات مجلتى « الاجيبسـيان » بالفرنسـية و « المصرية » باللغة العربية اللتين أسستهما للدفاع عن قضايا المرأة المصرية والعربيـة ، ايمانا منهـا بدور

الصحافة في التوعية والتنـوير ، بالاضـافة الى دور المنظمات من جمعيات واتحـادات ولجـان ومؤتمرات وندوات ومحاضرات ولقـاءات واجتماعات مثـل تلك التي تمت في صيف عامي ١٩٤٤ و ١٩٤٥ في سوريا ولبنان وفلسطين لمعالجة قضايا المرأة العربية على وجه التحديد ، وترتب عليها بالفعـل اصـلاحات لقانون الأحوال الشخصية خاصة بالزواج والطلاق والحضانة ، ومطالب المرأة الأخرى كحق التصويت والانتخاب لتمثيل المرأة في البرلمان ٠

كانت هدى شـعراوى شـعلة متوهجة من التأجج الفكرى والعملى ، ولم تتـوقف طاقتهـا المتـدفقة عن العطاء والكفاح والبـذل والتضحية لدرجة أن المثـال محمود مختار أطلق عليها أسم ايزيس لما كانت تنفقه على تعليم كثير من الفتيات والفتيان فى مصر والخارج على نفقتها الخاصة ٠ كما أسست قبـل وفاتهـا جمعية خيرية من البلاد الاسلامية لرعاية فقراء المسلمين الذين نزحوا من بلادهم للاقامة فى مكة والمدينـة بعـد أن لاحظت حالتهم البائسة عندما زارت بيت الله الحرام حيث تصدقت بمالها ، وقابلت الملك عبـد العزيز آل سعود ، وعرضت عليـه فكرة انشـاء مدرسـة لتعليم

الفتيات فحازت الفكرة القبول لديه . كذلك فان اسمها في الصين كان معروفا أيضا لرعايتها الاجتماعية والمالية للطلاب الصينيين في مصر ، كما ساعدت منكوبي أسبانيا والحبشة وتركيا . أما في الهند فقد بلغت شهرتها الآفاق في المجالين النسائي والسياسي لدرجة أن رئيسة مؤتمر نيودلهي النسائي الدولي قدمتها بقولها : « انها ليست فقط سيدة مصرية عظيمة بل تعد دون جدال من عظيمات نساء العالم ، فصفق لها خمسة عشر ألف سامع وسامعة » . كما ورد في نعي جريدة الأهرام لها في ١٧ ديسمبر ١٩٤٧ . وكان لها موقف مشرف من الزعيم الهندي غاندي عندما كان عائدا من لندن الى الهند بعد حضور مؤتمر المائدة المستدير في ديسمبر ١٩٣١ ، وكان المفروض أن ترسو الباخرة في السويس مما يتيح له فرصة زيارة القاهرة ، لكن السلطات البريطانية غيرت هذا الترتيب بحيث رست الباخرة في بور سعيد لفترة وجيزة ، وبخاصة أنها كانت تعلم مكانة غاندي في قلوب المصريين واعجاب سعد زغلول به ، وكان أن فكرت الهيئات في ارسال وفود عنها لتحيته والتعبير عن مشاعر المصريين نحوه . وبالفعل سافر محمود فهمي النقراشي مندوبا

عن الوفد ، وأسرعت هدى شعراوى بارسال سيزا نبراوى مندوبة عن الاتحاد النسائى المصرى ، والتى طلبت منه توجيه كلمة لسيدات مصر ، فكتب بالانجليزية : « أرجو أن تلعب الأخت المصرية نفس الدور الذى تلعبه أخواتها الهنديات فى حركة تحرير أراضيهم المحترمة ، لأننى أعتقد أن عدم القسوة هو امتياز المرأة » •

وكل من قابل أو تعامل مع هدى شعراوى لم يستطع أن يمنع نفسه من الانبهار بقوة شخصيتها ، ورجاحة فكرها ، وعمق ثقافتها وبصيرتها • فقد حدث أن كانت مسافرة الى أوروبا على الباخرة شمبليون عام ١٩٢٣ ، وكان الملك فيصل الأول ملك العراق ضمن المسافرين عليها ، فالتقت به ودار بينهما حديث قصير قال لها فى نهايته : « لقد قرأت عنك كثيرا ، وأعجبت بجهادك كثيرا • والآن لما رأيتك ، اطمأننت على أن النهضة النسائية فى بلادنا العربية بخير ، ودفتها فى يد ربان جدير بادارتها » •

أى أن عطاءها المتدفق لم يتوقف داخل الحدود المصرية أو حتى داخل الحدود العربية بل انطلق بقوة

ليربط المرأة الشرقية بركب الحضارة العالمية . ففى الفترة بين عامى ١٩٢٥ و ١٩٤٠ أصدرت مجلتها « الاجيبسيان » بالفرنسية ، وقامت بتحريرها سيزا نبراوى ذات الدرجة الرفيعة من الثقافة الفرنسية ، وذلك لتكون المجلة مرآة عالمية لكل انجازات المرأة المصرية والعربية فى داخل حدود الوطن ، ولدحض الادعاءات التى وصفتها بالتخلف والرجعية ، وكانت ترسل لأكثر من ثمانمائة قارىء أجنبى ، وكونت لها جمهورا ليس فقط فى أوروبا بل وفى أفريقيا واستراليا واليابان . ووصفتها صحيفة « الفيجارو » الفرنسية بأنها حلقة الاتصال بين الشرق والغرب . ثم أصدرت هدى شعراوى المجلة باللغة العربية : « المصرية » ، وكتبت المقالات فيها ، وعرضت آراء الكتاب الذين يساندون قضايا المرأة ويسعون لتحريرها مثل فكرى أباظة وتوفيق الحكيم . ولم تركز المجلة على الشئون المنزلية التقليدية كثيرا لأن هدى شعراوى أرادت ايقاظ الوعى النسائى خارج البيت أكثر من داخله ، واستخدمت فى تحرير مجلتها المثقفات حتى يحملن الشعلة الحضارية بعدها .

وللحقيقة والتاريخ فان حركة اليقظة والتنـوير التي أحدثتها هدى شعراوى كانت من القـوة والعمق بحيث تردد صداها فى أعلى الأوسـاط الرسـمية وفى أوسع المجالات الشعبية أيضا . فقد منحها الملك فاروق الوشاح الأكبر من نيشان الكمال فى حفل بدار الاتحاد النسائي المصرى ، ومنحها رئيس الجمهورية اللبنانيـة ميدالية الاستحقاق اللبنانى الفخرية الذهبية فى حفل إستقبال أقيم بالقصر الجمهـورى فى عاليـة بلبنان ، ومنحها رئيس الجمهورية السورية نيشان الاسـتحقاق السورى الممتاز من الدرجة الأولى ومنحها الملك عبدالله ملك شرق الأردن نيشان الاستقلال وكانت هـذه أول مرة يتم فيها الانعام بهذا النيشان على سيدة .

ظل عطاؤها للمرأة المصرية والعربية ، بل ولقضايا المصير المصرى والعربى ، متدفقا حتى آخـر لحظة فى حياتها . فقبل أيام من رحيلها أرسلت الى الأمم المتحدة احتجاجا صارخا على قرار تقسيم فلسـطين ، ولم يكن فى وسعها أن تفعل أكثر من هذا . قالت فى احتجاجها الذى نشرته جـريدة « فلسـطين » فى ١٧ ديسـمبر ١٩٤٧ :

« أما وقد أصـدرت هيئة الأمم المتحـدة قرارها بتقسيم فلسطين رغما عن ارادة شعبها ، ناكرة بذلك الحق الأساسي للشعوب في تقرير مصيرها ، فان نساء مصر والشعوب العربية يعتبرن هذا العمل المنطوى على مخالفة صارخة ، جريمة لميثاق الأمم المتحدة وسـابقة خطيرة ، وفألا سيئا للمستقبل • وهـذا القرار الذى صدر تحت وطأة تأثير مريب من جانب الدول العظمى على الدول الصغيرة ، قد أثار سخط النساء بل وسخط أولئك الذين كانوا يؤمنون باخلاص الدول المتمدينة ، ورسالة السلام التى تكللت بها هذه الأمم المتحدة ، وان هذا الحكم الذى أصدرته دون القارات الأخرى على غير ارادة الغالبية العظمى لشعب فلسطين ، وعلى الرغم من اعتراض الدول العربية والدول الآسيوية كلها ، فهو أفظع جريمة عرفهـا التاريخ ، اذ ينطوى عـلى اهدار الحقوق المقررة لأكثر أغلبية فى العالم •

« فنساء مصر اذ يعلن احتجاجهن بقوة عـلى هـذا التدخل غير القانونى من الدول الاستعمارية فى الشئون الداخلية للشعوب الآسيوية محاولة بذلك على بذر بذور الشقاق والكراهيـة فى البـلاد ، يرفرف عليها حتى اليوم جناح الوئام والسلام ، فانهن يحملن هذه الدول

مسئولية ما قد يحدثه هذا القرار من الاضطرابات واراقة الدماء فى الشرق الأوسط ، وأن نساء الشرق كلهن يقدرن على رفاهية سلام أبنائهن بشجاعة وصلابة أثناء الحرب والدفاع عن أوطانهن ، ومستعدات آن يعدون المعونة وأن يحاسبن العدوان الواقع على أوطانهن .

« وفى الختام نرجو التكرم بتبليغ دولتكم استياء نساء العروبة واستنكارهن لهذا الظلم الفاحش » .

الى هذا المدى بلغ عمق بصيرة هدى شعراوى وكأنها كانت تتنبأ بكل ما وقع بعد ذلك على مدى الأربعين سنة التالية من حروب واضطرابات واراقة مستمرة ومتصاعدة للدماء فى الشرق الأوسط . ذلك أن الدمار الذى وقع لهذه المنطقة فى أعقاب قرار التقسيم لم يكن له مثيل حتى فى أيام غزو المغول والتتار .

وكان هذا الاحتجاج آخر صرخة تحذير لهدى شعراوى ، ففى الثالث عشر من ديسمبر عام ١٩٤٧

رحلت بعد أن تركت تراثا حضاريا وانسانيا ، شاملا وعميقا ، قل أن نجد له نظيرا فى الفترة التى عاشتها منذ ميلادها في الثالث والعشرين من يونيو عام ١٨٧٩ · وكانت جنازتها موكبا مهيبا ودعت فيه مصر أعظم وأجل رائدة فى تاريخها الحديث ، فأرسل الملك فاروق والملكة فريدة والامبراطورة فوزية والأميرة فائزة مندوبات عنهن للتعزية ، مع أكاليل الزهور · كذلك شاركت مختلف الهيئات مثل هيئة سيدات مبرة محمد على ، وسيدات الهلال الأحمر ، وكلية البنات بالزمالك ، وفرع الاتحاد النسائى المصرى ومدارسه، فى الموكب المهيب سواء بالسير أو بأكاليل الزهور التى ودعتها الى مثواها الأخير ، لتنطوى بذلك صفحة من أروع وأنصع صفحات نهضتنا الحديثة ، وان كانت حروفها قد خطت من نار ونور كى تضىء معالم الطريق لأجيال المستقبل . وتقاوم كل محاولات طمسها وتمزيقها للعودة بالركب الحضارى الى عصور الحريم والظلام · ذلك أن قوة الدفع التى منحتها انجازات هدى شعراوى لعجلة الحضارة قادرة حتى الآن على دفعها وادارتها ، لكن التبعة الملقاة على أكتاف الجيل

الحالى والأجيال القادمة تحتم عليها تجديد قوة الدفع ومضاعفتها حتى لا يفوتنـــا ركب الحضـــارة أكثر مما فاتنا فى زمن لم يعد فيه مكان للمتخلف أو الجاهل أو ضيق الأفق ·

خاتمـــة

من هذه الخريطة الفكرية يتضـح لنا أن هـدى شعراوى لم تكن مجرد مرحلة تاريخية تروى أو تدرس، وانما كانت فكرا حضاريا متكاملا عرف كيف يتجسد فى انجازات مادية ملموســة ، وهى انجـازات لاتزال المرأة المصرية تتمتع بها حتى الآن ، بعد أن حرثت لها هدى شعراوى الأرض ومهدت لها الطريق لتصـل الى أرقى درجات العلم والثقافة ، وتحتل أعلى المنـاصب القيادية ، وتحصل على حق الانتخاب والتمثيل فى مجلس الشعب ، وتبرز فى شتى الميادين الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية والعلمية والفكرية والرياضية والأدبية والفنية ، وتتساوى مع الرجـل فى الحقـوق

والواجبات ، خاصة فى مجال الأجر والمرتب الذى لاتزال المرأة الأوروبية والأمريكية تحارب من أجل مساواتها بالرجل ، كذلك فان المـرأة المصرية تتمتع بمكاسب مادية وامتيازات أدبيـة فى مجـال آجازات الوضـع وتربية الأطفال ورعايتهم صحيا واجتماعيا، وبقوانين تؤمن لها ولأطفالها المستقبل ، وتحفظ لهـا كيانهـا وكرامتها كعضو عامل ومؤثر فى المجتمع ٠

لكن الخطورة الآن تتمثـل فى آن المـرآة المصرية أصبحت تنظر الى هذه الانجازات والمكاسب كأمر مفروغ منه وحقيقة راسخة لا يخشى زوالهـا ، ونسيت تماما الفـكر الـرائد الذى كان وراء هـذه الحقائق والذى كافحت من أجله هـدى شـعراوى وغيرها من رائدات النهضة النسائية ٠ فاذا تراجع هـذا الفـكر وأصبح مهـددا بالاندثار ــ وهـذا آمر آصـبح محتمـلا الآن للأسف ــ فان هذه الانجازات والمكاسب ستتلاشى الواحد بعد الآخر ، تمهيدا لعودة المرأة الى عصر الحـريم فى عصر أصـبح فيـه العـالم المتحضر يتسـابق فى الفضاء الى الكواكب الأخرى مستخدما آحدث انجازات العلم والتكنولوجيـا ، ذلك أن الفـكر هـو روح الانجاز المادى وجوهره والمحرك الأساسى له ، واذا ضمر

الفكر وتعثر واندثر فلابد أن يتحول الانجـاز المادى الى جثة هامدة لا حراك فيها ، عندئذ تبدو الدعوة الى وأده ودفنه مطلبـا لا يثير مجـرد الدهشـــة أو حتى التساؤل ٠

ولذلك فان المسئولية الملقاة على عاتق المرأة الآن، مسئولية خطيرة بل ومصـيرية ، واذا تقـاعست عنهـا وواصلت سلبيتها فقل عليها السلام ومن بعدها مصر كلها ٠ فبرغم أن الدستور المصرى ينص على أن الدولة تكفل مساواة المرأة بالرجل فى ميادين الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية ، فان المرأةالمصرية غائبة الآن عن المشاركة الفعالة فى العمل السياسى ٠ يدل على هذا نسب تمثيلها سواء فى مجلس الشـعب أو فى الاتحادات النوعية والأنشطة الشعبية والحزبيـة والنقابية ، وبالتالى فانها لم تندمج الاندماج الحقيقى فى الحياة العامة ، ولم تمارس تأثيرها الذى يمكن أن يكون فعالا فى المشاركة فى صنع القرار ٠

وربما كانت سـلبيتها جزءا من سـلبية المواطن المصرى بصـفة عامة نتيجـة لغيـاب الديمقراطيـة ، ولسيطرة أجهزة الدولة على كل كبيرة وصغيرة منذ ثورة

يوليو ١٩٥٢ ، مما دفع بالمواطن المصرى الى الاتكال على هذه الأجهزة بصفتها المصدر الوحيد الذى يتولى عنه توفير كل احتياجاته • ثم وقع الانفجار السكانى، وغمرت موجات التضخم كل البقاع ، فازدادت حدة التناقض بين ما يحصل عليه المواطن العادى من دخل وبين ما تحدده السوق من أسعار متصاعدة فى جنون لا يكبح جماحه أحد ، وبالتالى سقط المواطن فى دائرة جهنمية من الضغوط الاقتصادية والنفسية والانسانية جعلت اهتمامه بالقضايا القومية رفاهية لا يقدر عليها • وحتى الفئات والطبقات التى طفت على سطح المجتمع وقممه مع تطبيق سياسة الانفتاح والاستثمار فى السبعينيات لم تكن مستنيرة ، ولذلك لم يكن لها أى انتماء وطنى أو قومى سوى المزيد من الكسب المادى وانفاقه بأسلوب محدثى النعمة •

فى هذا المناخ كان من الطبيعى أن تتلاشى مشاركة المرأة فى الحياة السياسية والاجتماعية ، وأن تشيع مفاهيم متخلفة تفرق بين أدوار الرجل والمرأة فى المجتمع ، وذلك بادعاء وجود خصائص طبيعية متباينة ومختلفة لكل من الجنسين تفرض عليهم أدوار اقتصادية واجتماعية تتسم بنفس الدرجة من التباين والاختلاف

وهو ادعاء جاهل أو كاذب أو مغرض لأنه ثبت علميا منذ مطالع هذا القرن أن الفروق الأساسية بين الرجل والمـرأة هى فروق بيولوجيـة وفسـيولوجية مرتبطة بعملية الحمل والولادة فقط • لكن للأسـف فان المرأة نفسها سلمت بهذه الادعاءات المغرضـة المسمومة دون مناقشتها أو تحليلها علميا •

ولقد عززت أجهزة الاعلام هذا الادعاء الـكاذب المغرض على أنه حقيقة لا تقبل الجدل • فنسمع عـلى موجات الأثير أو نرى على شاشات التليفزيون أو نقرأ عـلى صفحات المجـلات والصحف أن الرجـل بطبيعته عقلانى ومبادر وايجابى وقادر على ممارسـة الحيـاة العـامة أما المـرأة فذات طبيعة عاطفيـة ، سـلبية ، خانعة • كما يذهب بعض الكتاب ، بمنتهى البساطة ، الى أن المكان الطبيعى للمرأة هو البيت لأن العمل خلق للرجل فقط • وذلك فى وقت يعانى فيه المجتمع كله من ارتفاع فى نسبة الاعالة وغياب المشاركة الايجابية نتيجة تضاؤل مساهمة المرأة فى العمل بمختلف صوره وأساليبه • وأوشكت هذه الادعاءات الرجعية المتخلفة أن تتحول الى ما يشبه التقاليد المستساغة لدرجة نرى فيهـا اعلانات عن وظائف تشترط عدم تقـدم الاناث

لشغلها ، ضـاربة بالدسـتور عرض الحائط • وكأنه لا ينص على أن العمل واجب على الجميع وحق لهم طالما أنهم قادرون على القيام به على خير وجه •

وتقول الدكتـورة زينب شـاهين الخبيرة بالمركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائيـة فى مقالة لهـا بجريدة « الأهرام » فى ٢٠ ابريل ١٩٨٧ ان الأميـة المتزايدة بين النساء ساهمت فى تقليص دور المرأة فى الحياة العامة ، ذلك أن نسبتها بين الاناث فى الحضر تصل الى ٦٠٪ على مستوى الجمهورية فى حين تزداد فى القطاع الـريفى الى حـوالى ٨٦٪ • ذلك لأن المـرأة الريفية التى تشكل الأغلبية النسائية فى مصر تعـانى من أوضاع جائرة للغاية • فهى تنفق حوالى ١٥ ساعة يوميا فى العمل المتواصـل داخـل البيت وخارجه وكذلك المرأة الحضرية فانها تقـوم بدورها التقليدى داخل البيت وبدورها الوظيفى خارجه • وبالتالى فقد استنفذ العمل المزدوج طاقة المرأة ووقتها ، واستهلك عقلها وجسدها بهمومه ومشاغله ومآسيه ، وأصبح من المستحيل ممارستها لأى نشاط وطنى عام •

والحل لا يكمن كما يدعى البعض فى عودتها الى البيت وحرمانها من حقوقها الأساسية فى المشاركة فى

تنمية مجتمعها ، ولكن من خلال توفير كافة الخدمات والتسهيلات التى تساعد الزوجين على القيام بعملهما داخل البيت وخارجه · ولابد أن نضع فى اعتبارنا أن نسبة المشاركة في الحياة السياسية بين النساء العاملات أكبر منها بين أولئك العاكفات في بيوتهن اللاتى لا يعرفن من أمور دنياهن سوى الخدمة المنزلية التى لابد أن تصيبهن بضيق الأفق ثم بالعزلة التامة عن تيار الحياة المتدفق خارج المنزل · وتضيف زينب شاهين قولها :

« ومما ساعد فى الحد من مشاركة المرأة فى الحياة العامة نمو الاتجاهات المحافظة والمتطرفة · والمتأمل لآراء هذه التيارات يستشف منها دعوة الى انحسار دور المرأة فى المجالات العامة · وبالرغم من أن هذه الآراء المتزمتة دخيلة على المجتمع الا أنها لاقت استجابة لدى بعض جماعات المصالح · لقد حاولت هذه الجماعات استرضاء القوى المحافظة مضحية بذلك بمصداقية النص الدستورى الذى ينص على أن المواطنين متساوون فى الحقوق والواجبات العامة ، لا تمييز بينهم · ولذلك رأينا القوائم الانتخابية وقد خلت من نسبة معقولة من المقاعد المخصصة للمرأة · ولكن على هذه الجماعات أن

تعنى أن مشاركة المرأة فى الحياة العامة وانخراطها فى العمل السياسى بفاعليـة يمثـل خطوة أسـاسية لبناء مجتمع قادر عـلى اسـتثمار كل طاقاته وعنـاصره الخلاقة »

وعـلى صفحات « الأهـرام » بتـاريخ ١٦ ابريل ١٩٨٧ قامت منى رجب بلقـاءات فكـرية مع توفيق الحـكيم وأمينة السـعيد ونـوال السـعداوى ولطيفة الزيات ، وخرجت منها بصورة واضحة للنكسات التى أصابت الحركة النسائية بالعزلة والانكماش والتقوقع، والتى جزأت الحـرية ـ التى لا تتجزأ بطبيعتها ـ الى جزءين لتكون حقا لنصف المجتمع دون النصف الآخر ، وبدلا من أن يصبح صنع الحضـارة مسـئولية الرجل والمرأة ، أصبحت المرأة تعانى الاغتراب والتساؤل عن نوايا القيـادات السياسـية والتيـارات المختلفة التى تناقش قضيتها دون مشاركتها ٠

قال توفيق الحـكيم انه من الضرورى أن يكـون للمرأة برنامج خاص بهـا لحل مشـاكل البيت المصرى أولا ، فلا حضارة بدون تنظيم البيت المصرى ٠ فالمرأة الأوروبية لا تعانى كثرة المشاكل اليومية مثل المصرية ،

ومن المفروض على عضوات مجلس الشعب أن يقترحن الحلول الكفيلة بحل هذه المشاكل ، لكنهن للأسف لا يتحدثن عن مشاكل المرأة أى مشاكل المعيشة والمصروفات والتعليم والغذاء والثقافة . ولذلك يرى توفيق الحكيم ضرورة انشاء حزب نسائي ، والارتباط ببرنامج موحد داخل مجلس الشعب ، برنامج يقوم بدراسة مسألة مجانية التعليم وكشف سلبياتها، ومشكلة توفير غذاء المنزل اليومي ، وتعميم مئات المشروعات التى تحتاج اليها مثل المشروعات الغذائية الصغيرة ، وحل مشكلة النظافة ، مع التركيز الاعلامى على هذه الأنشطة وذلك بعرض برنامج حزب النساء فى الصحف ، واعلان المرأة لشخصيتها المستقلة وآرائها المتحررة لحل هذه المشاكل كما لمستها هى . وكل ذلك سيسهم فى التقدم الحضارى للأمة كلها .

أما أمينة السعيد فلا تتردد فى الافصاح عن آرائها الثورية التى عهدناها فيها دائما . ولا غرو فى هذا فقد كانت تلميذة لهدى شعراوى ، وسكرتيرة للاتحاد النسائي المصرى القديم الذى أنشأته هدى شعراوى ورأسته حتى وفاتها ، ولذلك فهى آخر الحرس القديم الذى لايزال صامدا فى الدفاع عن القلعة العريقة التى

شهدت أيام عزها فى عصر التنوير فى الربع الأول من هذا القرن ولم تتصور أن تتعرض لهجمات شرسة مثل تلك التى تهددها فى الربع الأخير منه • ولعل السؤال الكئيب الذى يلح على الأذهان المستنيرة هو من الذى سيواصل مهمة التوعية والتنوير بعد أن أوشك الجيل الذى تربى فى أحضان هدى شعراوى على أن يسلم أعلامه ؟!

تعلق أمينة السعيد على محنة المرأة المصرية الآن فتقول ان من مآسى الحياة فى مصر أن عضوات مجلس الشعب السابق كن أول من وافق على خروجهن من المجلس السابق • نحن نعيش فى بلد يحكمه الرجل ولا قيمة ولا كرامة ولا عزة للمرأة حتى الآن • ولذلك لابد من وضع قانون يحتم دخول المرأة مجلس الشعب بالتعيين • ثم تتساءل أمينة السعيد : ألا يمثل العمال والفلاحون بنسبة النصف فى المجلس ؟ انها حقوق تسلب من المرأة وليست دليل حرية كما تتصور العضوات السابقات • لقد ظللنا نكافح طوال خمسين عاما ونخوض معارك • اننا نعيش مأساة لم تحدث فى أى دولة أخرى • فكل شىء معكوس ، ولهذا تدين أمينة السعيد كل من وقفت فى مجلس الشعب تهلل لأنها تحررت

من التعيين وستدخل بالانتخاب ظنا أو جهلا منها أنها أصبحت قادرة على النجـاح فى الانتخابات · ثم تختم حديثها بقولها :

« لابد أن تقوم النساء يدا واحدة ونحتج عـلى تراجعنا ، وسحب البساط من تحت أرجلنا ، ونتصدى لهذا التراجع · اننا نعرف أن حـكومتنا تمر بأزمات كثيرة لكننا مستعدون للتصدى · لابد من قيام تنظيم نسائى قوى يتصدى ويقاوم التيـار الرجعى ، ونحن على استعداد للتجمع والتظاهر ودخول السجن » ·

أما الدكتورة نوال السعداوى فترفض الفصل بين القضية السياسية والقضية الاجتماعية · فهذا نقص خطير ومفهوم عبودى أو طبقى رجعى لابعـاد جماهير النساء عن العمـل السـياسى أو السلطة · فالسياسـة ترتبط بالحـكم كمـا تتغلغل فى حيـاة الأسرة · أما المشاركة الاجتماعية التقليدية فقط فمعناها أن تعمل المرأة دون أن يكون لهـا أى مشـاركة فى السلطة أو الحكم · ولن تتحـرر المرأة بدون قوة سياسـية ، ولن يحرر النساء الا النساء · لقد انتهى مفهـوم الوصاية فى السياسة ، لذلك يتحتم عـلى المرأة تنظيم نفسـها سياسـيا لأن الاتحـاد قوة ، وتطوير الوعى لأن قضية

المرأة أصبحت علماً مثل الطب ويجب نشر الوعي بها في كل مكان ، وكذلك العمل على أن تملك المرأة القوة الاقتصادية على المستوى الفردي ، لأنه لا حرية بدون قاعدة اقتصادية تنهض عليها ٠

أما الدكتورة لطيفة الزيات فترى أن تراجع المرأة جزء لا يتجزأ من تراجع عام يندرج فيه الرجل أيضا٠ وكل ذلك نتيجة للأزمة الاقتصادية ، وتباين الدخول بشكل ملحوظ، وغيبة الهدف المشترك والقضية الوطنية مما جعل الانتماء مشكلة ملحة وعاجلة ، اذ لم يعد هناك انتماء للأرض أو للوطن أو كيان مشترك موحد مما جعل الفردية والأنانية تحل محل قيم أخلاقية تقوم على الجماعية ٠ وقضية المرأة لا تنفصل عن قضية الرجل ، ولذلك يتحتم علينا حكومة وشعبا أن نبدأ فى اصلاحات اقتصادية جذرية بهدف ايجاد فرص عمل واسكان وخدمات كبرى للشباب ، عندئذ سيبرز الهدف المشترك الذى يتجمع حوله الرجال والنساء ، ويحل التعاون بينهم بدل التفرقة والعزلة ٠

ومن الواضح أن كل هذه الآراء والاتجاهات لا تخرج عن نطاق التراث الاستراتيجى الذى تركته

لنا هدى شعراوى ، وفى مقدمته انشاء المؤسسات أو الأجهزة القادرة على تحويل الدعوة الى انجازات مادية ملموسة تقنع الناس عمليا بجدواها وفائدتها ٠

وربما قوبلت الدعوة الى انشـاء حـزب نسـائى بعقبات كامنة فى قانون تأسيس الأحزاب ، لكن مثـل هذه العقبات يمكن أن تذلل من خلال بدائل أخرى مثل تأسيس الاتحاد النسائى العام على غرار ما فعلته هدى شعراوى من قبل ، على أن تكون له مكاتب فرعيـة فى المحافظات والأقاليم . وله جريدته الناطقة بلسـانه ، ومشروعاته التجارية والاستثمارية التى يمكن أن تشكل قاعدة اقتصادية له ، وأنشطته المختلفـة فى مجـالات التعليم والصحة والثقافة والرعاية الاجتماعية والتوعية الفكرية ٠

ويمكن أن تتمثل طليعة هذا الاتحاد النسائى العام من القيادات النسـائية فى شـتى المجـالات : مجلس الشـعب والصـحافة والأدب والفن والتعليم والثقافة والصحة والشئون الاجتماعية والبحث العلمى خاصـة فى مجال النهضة النسائية وتحرير المرأة الذى ألفت فيه دراسات وكتب قيمة اعتمد عليها هذا الكتاب فى

مادته التاريخية • ويمكن تشكيل لجان فرعية لهذا الاتحاد ، تختص كل منها بجانب تشرف عليه الخبرات والمتخصصات فى مجاله ، مع عقد مؤتمر عام سنوى تناقش فيه المجتمعات انجازات الاتحاد والاقتراحات والدراسات التى تسعى لانجازات جديدة ، وكذلك مؤتمرات فرعية متخصصة ، مع الارتباط بالحركة العالمية للمرأة فى أشكالها المختلفة ، والمشاركة فى صنع القرار السياسى من خلال عضوات مجلس الشعب •

ان تنظيما مثل هذا أو غيره من شأنه أن يستقطب النساء حوله وأن يعيد الروح للحركة النسائية ، وذلك لقدرته التنظيمية على مواجهة التحديات ، والتواجد فى قلب الأحداث ، والمبادرة الفكرية والتنفيذية ، ومناقشة أعقد القضايا السياسية ، وتدعيم الوحدة الوطنية ، وتوظيف الرأى العام لمساندة قضايا المرأة ، والتوعية المستمرة بحتمية التطور ، ونشر النظرة العلمية الموضوعية ، والحفاظ على كرامة الانسان وكيانه ، يستوى فى ذلك الرجل والمرأة ، والاصرار على ابداء الرأى فى كل ما يمس المرأة من قضايا ، والاحتجاج بل ومقاومة كل ما يهدد كيانها ، وابراز القدوة التي تعلن عن نفسها دون ضجيج اعلامى أجوف

ومفتعل ، والنقد الذاتي الذى يطارد السلبيات ويدعم الايجابيات دون حساسيات ، والتعامل مع الرجل بصفته شريكا وليس خصما ، وانتهاج الأساليب العقلانية التى لا تعرف التشنج أو الانفعالات الهوجاء التى تبدد الطاقة وتهدر الوقت فيما لا يفيد ، وغير ذلك من الأنشطة والطاقات التي يمكن أن يفجرها هذا التجمع النسائى القومى ٠

ومن حسن حظ المرأة المصرية الآن أنها لن تبدأ من فراغ ٠ فأمامها استراتيجية هدى شعراوى وتراثها الذى أثبتت التربة المصرية قدرتها على احتضانه واستنباته وانمائه حتى يؤتى ثماره الناضجة ٠ ولا يحتاج الأمر من المرأة المعاصرة سوى تجديد هذا التراث بما يتفق مع المتغيرات المستحدثة ٠ ولا شك أن ظروف هذا الجيل أفضل بكثير من ظروف جيل هدى شعراوى الذى كان عليه أن يتخلص من تلال التخلف الراسخة وطبقات الظلام المتكاثفة التى أطبق بها الحكم العثمانى على أنفاس مصر وعيونها ما يقرب من أربعة قرون ٠ كذلك لم يكن جيل هدى شعراوى يملك من وسائل الدعوة والاعلام سوى اصدار الصحف والمجلات، وعقد الاجتماعات والندوات والمحاضرات والمؤتمرات،

والايمان القوى بقضية المرأة والحماس المتفجر لهـا ، فى حين أن الجيل الحـالى يمكن أن يتغلغل الى أجهـزة الاعلام الأخرى من راديو وتليفزيون وسـينما بشرط أن يتحلى بنفس الايمان والحماس ، خاصة وأن التربة لا تزال مهيأة ، والطريق ممهـدة بفضـل ريادة هدى شعراوى وانجازات جيلها ٠

وقد أصبحت القضية قضية مصـير عنـدما بلغت المرأة المعاصرة مفترق الطرق الذى يحتم عليها اختيار طريق من اثنين لا ثالث لهما : اما التقدم على طريق هدى شعراوى الشاق الوعر نحو مستقبل مشرق متجدد أو التقهقر على طريق التخلف السهل المريح نحو عصر الحريم بكل ظلمه وظلامه ٠ ولم يعد أمام المرأة سـوى ان تسأل نفسها سؤال هاملت الشهير : أكون أو لا أكون ٠٠ تلك هى المعضلة ؟! وعليها أن تجيب عليه قبل أن يجيب عليه خصومها المتربصون بها ٠

قائمة المراجع

الكتب :

١ ـ اجلال خليفة : الحركة النسائية الحديثة · القاهرة : المطبعة العربية الحديثة ، ١٩٧٣ ·

٢ ـ اجلال خليفة : المرأة وقضية فلسطين · القاهرة : المطبعة العربية الحديثة ، ١٩٧٤ ·

٣ ـ أحمد طه أحمد : المرأة كفاحها وعملها · القاهرة : دار الجماهير ، ١٩٦٤

٤ ـ أحمد لطفى السيد : النسائيات ـ ج ١ · القاهرة : مطبعة الجريدة ، ١٩٣٧ ·

٥ ـ السعيد مصطفى السعيد : المرأة والتعليم الجامعى · الأسكندرية : مطبعة جامعة الاسكندرية ، ١٩٥٥ ·

٦ ـ آمال كامل بيومى السبكى : الحركة النسائية فى مصر ما بين الثورتين ١٩١٩ و ١٩٥٢ · القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٦ ·

٧ ـ أمانى فريد : المرأة المصرية والبرلمان · القاهرة : مطبعة التوكل ، ١٩٤٧ ·

٨ ـ أميرة عبد المنعم البسيونى : الأسرة المصرية · القاهرة : دار الكتاب العربى ، ١٩٦٤ ·

٩ ـ انجى أفلاطون : نحن النساء المصريات · القاهرة : مطبعة السعادة ، ١٩٣٩ ·

١٠ـ حسنى نصار : حقوق المرأة : الاسكندرية : دار نشر الثقافة ، ١٩٥٨ ·

١١ـ درية شفيق : المرأة المصرية · القاهرة : مطبعة التوكل ، ١٩٥٥ ·

١٢ـ درية شفيق ود· ابراهيم عبده : تطور النهضة النسائية فى مصر من عهد محمد على الى الفاروق · انقاهرة : مكتبة الآداب ، ١٩٤٥ ·

١٣ـ عبد الرحمن الرافعى : فى أعقاب الثورة المصرية ـ ج ١ · القاهرة : دار النهضة المصرية ، ١٩٦١ ·

١٤ـ قاسم أمين : المرأة الجديدة · القاهرة : مطبعة الشعب ، ١٩١١ ·

١٥ـ قاسم أمين : تحرير المرأة · القاهرة : مطبعة الشعب ، ١٩١٢ ·

١٦ـ لطيفة محمد سالم : المرأة المصرية والتغيير الاجتماعى ١٩١٩ ـ ١٩٤٥ ·
القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٤ ·

١٧ـ مجد الدين حفنى ناصف : آثار باحثة البادية · القاهرة : المؤسسة العربية العامة ، ١٩٦٢ ·

١٨ـ محمد جميل بيهم : فتاة الشرق فى حضارة الغرب · بيروت : مطبعة قلفاط ، ١٩٥٢ ·

١٩ـ محمد عمارة : قاسم أمين وتحرير المرأة · القاهرة : كتاب الهلال ، ١٩٨٠ ·

٢٠ـ هدى شعراوى : مذكرات · القاهرة : كتاب الهلال ، ١٩٨١·

الدوريات :

١ ـ الجنس اللطيف ١٩٢١ ـ ١٩٢٢

٢ ـ المرأة المصرية ١٩٢١ ـ ١٩٢٣

٣ ـ السيدات والرجال ١٩٢٤

٤ ـ المرأة الجديدة ١٩٢٤ ـ ١٩٢٥

٥ ـ السياسة الأسبوعية ١٩٢٤ ـ ١٩٢٦

٦ ـ النهضة النسائية ١٩٢٤ ـ ١٩٣٨

٧ ـ الأمل ١٩٢٥ ـ ١٩٣٠

٨ ـ روز اليوسف ١٩٢٦ ـ ١٩٣٦

٩ ـ أمهات المستقبل ١٩٣٠ ـ ١٩٣٧

١٠ـ المصرية ١٩٣٠ ـ ١٩٣٩

١١ـ الفتاة الاسبوعية ١٩٣٧ ـ ١٩٣٨

١٢ـ فلسطين ١٩٤٧

فهرس

صدر من هذه السلسلة

١ ــ مصطفى كامل فى محاكمة التاريخ
د· عبد العظيم رمضان

٢ ــ على ماهر اعداد رشوان محمود جاب الله

٣ ــ ثورة يوليو والطبقة العاملة
اعداد عبد السلام عبد الحليم عامر

٤ ــ التيارات الفكرية فى مصر المعاصرة
د· محمد نعمان جلال

٥ ــ غارات أوربا على الشواطىء المصرية فى العصور الوسطى
علية عبد السميع

٦ ــ هؤلاء الرجال من مصر
لمعى المطيعى

٧ ــ صلاح الدين الأيوبى
د· عبد المنعم ماجد

٨ ــ رؤية الجبرتى لأزمة الحياة الفكرية
د· على بركات

٩ ــ صفحات مطوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل
د· محمد أنيس

١٠ ـ توفيق دياب ملحمة الصحافة الحزبية

محمود فوزى

١١ ـ مائة شخصية مصرية وشخصية

شكرى القــاضى

١٢ ـ هدى شعراوى وعصر التنوير

د٠ نبيل راغب

العدد القادم :

أكذوبة الاستعمار المصرى للسودان

د٠ عبد العظيم رمضان

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٨/١٥٤٢

ISBN ـ ٩٧٧ ـ ٠١ ـ ١٦٥٥ ـ ٦

على الرغم من مرور أربعين عاما على رحيل هدى شعراوى ، رائدة الحركة النسائية فى مصر ، فإن كتابا لم يصدر عنها بعد - فى حدود علمي - يبين دورها التاريخى فى نقل المرأة المصرية من عصر الحريم إلى عصر التنوير ، و ها نحن نوشك أن نعود بالمرأة مرة أخرى إلى عصر الحريم ، تحت فكر الجماعات التى تتاجر بالإسلام وصولا إلى السيطرة السياسية على مقدرات بلادنا .

من هنا يأتى هذا الكتاب بمثابة تذكرة ، وشحذ لذاكرة جماهيرنا التى بات يهددها ظلام الرجعية وفكر العصور الوسطى ، فى عصر تقفز فيه الشعوب الأخرى إلى عالم الفضاء وتطأ باقدام روادها أرض القمر ! . ومن هنا أيضا فقد أخذ هذا الكتاب من أنجازات هدى شعراوى منطلقا وضوءاً فاحصاً ينير به الكهوف المظلمة والطريق المسدودة التى أوشكت المرأة المعاصرة على الدخول فيها تحت وهم الواهمين .

مطابع ا

٥٠ قرشـــا